البحث فى أسرار الموت

أنا عائد من العالم الآخر !

رجل يغلب عليه الشكل الدائرى.. رأسه مستديرة وكذلك نظارته الطبية، وحتى ابتسامته الصغيرة التى لا تتجاوز حداً معيناً.. ابتسامة لطيفة رغم أنها تجعله أشبه بثعلب خبيث. التقيت به فى المستشفى الضخم فى فرجينيا حيث يغلب اللون الأبيض على المكان المعبأ برائحة الإثير.

لمدة نصف ساعة كاملةحاولت أن أطرح عليه سؤالاً ولكن جرس التليفون كان يدق كل ثلاثين ثانية قاطعاً الحوار الدائر بيننا.. كان «رايموند مودى» يرد على التليفون بصفته الطبيب النوبتجي فى ذلك اليوم، ويقوم فى عجلة للمرور على إحدى الحالات التى انتابتها أزمة مفاجئة.. ثم يعود ليلقى بنفسه فوق الكرسى المتحرك ويتأرجح فوقه.

كنت محقاً فى اعتقادى بأن ذلك الرجل حقق مكاسب هائلة من وراء كتابه، فسألته:

– ماذا كنت تتوقع أن تثبت من خلال الرؤى الشهيرة التى ذكرتها فى كتابك عن الاقتراب من حافة الموت ؟.

– لا شيء على الإطلاق !.

وعندما صممت على إجابة أكثر وضوحاً.. قال :

– إننى أقول ببساطة للناس: انظروا حولكم وسوف تشاهدون هذه الوقائع الغريبة والمسلية فى آن واحد. إننى لا أحلل ظاهرة نادرة فى معمل، ولكنها تجربة تحدث فى كل مكان، فليأخذ العلماء ظاهرة الاقتراب من الموت (إن. دى. اى) ويحللونها ويحاولون تفسيرها ثم تُقارن النتائج المختلفة.. هذا كل ما فى الأمر !

– معذرة.. ولكنى لا أفهم كيف أن كتابك وعنوانه «الحياة بعد الحياة» لم يحاول كما تقول إثبات أى شىء.

– فعلاً.. وأصارحك القول بأننى لم أكن متحمساً لعنوان الكتاب فقد اختاره الناشر. وكان المفروض ألا تتعدى مبيعات الكتاب الذى أصدرته دار النشر الصغيرة فى الجنوب بضعة آلاف، ولكن النسخ المباعة قفزت إلى ملايين. لقد كان الأمر بالنسبة لى مجرد لعبة أو وسيلة تسلية.. كنت أريد إثارة فضول زملائى وربما إحداث نوع من الصدمة لهم.. ولم أتوقع أبداً هذا النجاح.

كان مقتنعا بما يقول.. وحاولت إثارته بكافة الوسائل لإخراج كل ما فى جعبته، ولكنه أبداً لم يتخل عن روحه المرحة.. واكتشفت أن هذا الطبيب الناجح والحاصل على الدكتوراة فى الطب وفى الفلسفة بداخله طفل كبير ثرثار. لقد اكتسب عادة الثرثرة من أهل الجنوب حيث نشأ.. فقد ولد عام ١٩٤٤ فى إحدى مدن ولاية جورجيا المشهورة بصناعة النسيج، وكان والده مجنداً فى الجيش طاف بأوروبا.. فكان يستمع منه للعديد من القصص والحكايات.

فى المدرسة كان رايموند مودى تلميذاً متفوقاً يعشق البلاغة والفلسفة فقرر دراستها فى جامعة فرجينيا، وهناك التقى عام ١٩٦٥ بالدكتور جورج ريتشى أستاذ الطب النفسى بالجامعة وتأثر به بشدة.

وذات يوم علم مودى بإشاعة تتردد حول الطبيب النفسى.. كان الطلبة يتحاكون عن إصابة ريتشى منذ عدة سنوات فى حادث مروع وأنه بعد توقف قلبه وتأكد كل من حوله أنه مات.. استيقظ ثانية، وأخذ يحكى عن تجربة غريبة لا زالت محفورة فى ذاكرته مؤكداً أنها ليست حلماً كما يتوهم الجميع.

هل هى مجموعة من الخيالات؟.. حالة هذيان.. أم صدمة عصبية أصابت المخ؟.. لم يستطع أحد تفسير رؤية ريتشى فلم يكن العلم قد توصل بعد فى ذلك الوقت إلى التركيبة الكيميائية للخلايا العصبية. كانت دراسة التوتر والضغط

العصبى هى الأكثر شيوعاً فى الجامعات الأمريكية.. فحاول الفيلسوف الأمريكى رايموند مودى الربط بين الضغط العصبى والحالة النفسية.. واستنتج أن الضغط النفسى الذى تعرض له جورج ريتشى قد سبب له هذه الخيالات التى تشبه تأملات الهنود للقوى الخارقة فى الطبيعة.

قال الطبيب النفسى إنه شعر بنفسه يطير خارج جسده الخامل وأخذ يرقبه فى سلبية كمن يرى شيئاً غريباً عنه، ثم ابتعد وحلق بعيداً فى سكون تام ليندفع نحو «**طاقة الحب الطاهر**» التى تشبه الشمس النقية كما يسميها الهنود وطائفة السيخ فى الهند.. لقد شعر بنشوة لذيذة وكأنه شرب ماء الحياة.

وطلب مودى من ريتشى أن يحكى له عن خيالاته ولكن الأخير رفض هذه التسمية واحتار مودى ماذا يطلق على هذه التجربة التى مر بها أستاذه وهو يحتضر داخل سيارته المهشمة ؟!

لم يستطع ريتشى أن يجد تفسيراً لهذه التجربة التى قلبت حياته راساً على عقب منذ خمسة عشرة عاماً.. لقد شعر وقتها بصفاء ذهنى لم يعرفه من قبل، وجلس مودى محملقاً فيه وهو يذكر أشياء عجيبة: «مدينة من الكريستال تشع حباً.. وزجاجاً ذهبيًا ذا شفافية خارقة يسطع بنور من الحب الخالص ويغشى كل من يقترب منه».

استمع رايموند مودى الذى يعشق الروايات منذ الصغر إلى تجربة ريتشى وكأنها إحدى حواديت ألف ليلة وليلة.. إنها مغامرة غير عادية تستحق الاهتمام.. فهو نفسه كثيراً ما يحلم ويتخيل نفسه فى أثينا تلميذاً للفيلسوف الشهير سقراط أو زميل دراسة لأفلاطون.

مرت السنوات وأصبح مودى استاذاً للفلسفة بجامعة نورث كارولينا، وخلال محاضراته لفت الطلبة نظره إلى ضرورة الاهتمام بفلسفة الحياة الأخرى والمعتقدات اليونانية فى هذا الشأن.. كانوا يريدون أن يخرج بهم عن النمط التقليدى فى المنهج الدراسى ليحدثهم عن علم الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة

والظواهر الطبيعية الخارقة)، وحاصره أحد الطلبة بأسئلة عن الموت وحكى له أن جدته كانت تحتضر قبل عامين وظلت كذلك عدة ليالٍ حتى ظن الجميع أنها ميتة لا محالة.. ولكنها فجأة استعادت قواها وعادت إلى طبيعتها وانبهر الطالب الشاب بما حدث وجلس يستمع لجدته التى أخذت تقص عليه مشاهدات غريبة – عن لحظات اقترابها من الموت – جعلته يغير جميع مفاهيمه ومعتقداته القديمة.

تشابهت مشاهدات الجدة إلى حد كبير مع تجربة الدكتور جورج ريتشى.. وكانت مفاجأة لأستاذ الفلسفة أن تتكرر القصة الغريبة مرة أخرى بعد كل هذه السنوات.

فى محاضرة الفلسفة التالية طلب مودى من الطالب أن يحكى على الملأ قصة جدته.. عندئذ رفع طالب آخر إصبعه ليحكى تجربة مشابهة. فقد أشرفت أخته على الموت ذات يوم وأفاقت من الغيبوبة لتتحدث عن رؤية مشابهة: فراغ هائل أشبه بنفق ينبعث منه ضوء ساطع ذهبى اللون يشبه الشمس ولكنها أبداً لم تتضايق من النور الأخاذ بل شعرت فى مواجهته بأنها فى الجنة!

خلال بضعة شهور.. استمع مودى إلى خمسة عشر حالة متشابهة. كانت مصادفة غريبة.. وبدأ هو الآخر يحكى لأصدقائه فى النوادى والمؤسسات المختلفة التى يتمتع بعضويتها عن تجربة ريتشى وأقارب الطلبة، ولاحظ شيئاً غريباً.. فى كل مرة يتطرق إلى هذا الموضوع أمام جمع من الناس، يقص أحد الحاضرين رواية مماثلة سمع بها أو لمسها بنفسه عن حالة تعرضت للموت الطبى المؤقت ثم كُتب لها بعد ذلك عُمر جديد.

كانت القصص التى يستمع إليها مودى تحكى مشاعر عميقة وجادة.. حميمة وعجيبة فى آن واحد.. وكان الأشخاص الذين يحكونها عادة ما ينخرطون فى البكاء أثناء الكلام (ليس النساء فقط ولكن أيضا بعض الرجال لم يستطيعوا كبح دموعهم عندما تذكروا غيبوبتهم الرائعة).

كانت الروايات الخمسة عشرة تشترك فى عنصر هام: إن أصحابها يرفضون تماماً تفسير تجاربهم كنوع من الهلوسة أو أضغاث أحلام. وتساءل مودى: لماذا لا نصدقهم؟.. لأن المنطق يقول إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش تجربة خارج جسده! أما الواقع فيؤكد أن الذين أفلتوا من براثن الموت الطبى المؤقت ذكروا بوضوح ما حدث أثناء محاولة الأطباء إنعاش قلوبهم، بل شاهدوا أيضا ما يحدث فى الغرف المجاورة؛ إنه أمر محير فعلاً! هل يمكن أن يؤدى الضغط العصبى الهائل الذى يتعرض له هؤلاء الأشخاص عند الموت إلى حالة من الوعى يمكن معها رؤية ما يحدث عبر الجدران ؟!.

أخذ رايموند مودى يتساءل من جديد عن الأساس الذى قام عليه علم الفلسفة: ما هو الشعور أو الوعى ؟. إن الشعور كما يتصوره شىء غنى قوى وجميل لا يمكن أن ينبعث من العدم، إنه يرفض مبدأ التسليم المطلق بالأشياء لأنه ضد المنطق.. هو مثلاً لم يحدث له أبداً أن خرج من جسده ولا يستطيع أن يتصور مادياً كيف يمكن أن يتم ذلك.

إنه بروتستانتى يؤمن بأن للإنسان روحًا ولكن هذه الروح تنتقل إلى واقع آخر عند الموت.. واقع مخالف تماماً لعالم الأحياء.. فكيف تعود ثانية ؟!.

فى العالم التالى (١٩٧٠)، وجد مودى الطلبة يلحون عليه مرة أخرى لدراسة فلسفة الموت.. فاضطر أن يغير المنهج الدراسى الذى وضعه مسبقاً ويترك المنطق الخاص والفلسفة الذهنية ليقترب من شواطئ الموت فى تجارب الاحتضار.. كان أحد الطلبة قد جاء برواية جديدة عن تجربة الاقتراب من الموت دفعت الأستاذ إلى التعمق فى دراسة الفلسفة اليونانية القديمة وتعريف الطلبة بأسطورة «إير» التى جاءت فى إحدى كتب أفلاطون.

كان «إير» جنديا واجه الموت فى أرض المعركة وأُلقيت جثته فوق المحرقة مع باقى الجثث، وقبل اشتعال النار فيها قام «إير» من رقدته وسط فزع الجميع.. فلم يكن قد توفى بعد.

إن هذا المشهد يتكرر دائماً فى ساحات المعارك، وقد عثر الباحثون بمؤسسة (إياندس) على عشرات النماذج المشابهة «لإير» بين المحاربين الذين ذهبوا إلى فيتنام.

تقول الأساطير اليونانية إن إير سافر إلى بلاد الموتى.. لقد ترك جسده وانطلقت روحه هائمة خفيفة مثل الهواء لتلحق بالجنود الذين لقوا حتفهم فى المعركة، وتجمعوا كلهم فوق تل بوادى مرتفع.. وهناك اعترضت طريقهم كائنات سماوية تعرف كل شىء عن حياتهم.. عن أسباب سعادتهم وعن نقاط ضعفهم.. ورأى كل جندى حياته تمر كشريط سينمائى أمامه.. كانت تلك الرؤية بمثابة تقييم لأعماله، الوحيد الذى لم يخبُ هذه التجربة هو «إير» فقد طلبت منه الكائنات السماوية أن يعود للأرض ويحكى للبشر عن مشاهداته فى هذه الرحلة.

وذُهِل الطلبة فى فرجينيا من تشابه قصة «إير» مع تجارب أقاربهم.. وتركوا العنان لخيالهم المراهق، واستمتع مودى برؤيتهم حائرين.. (فلقد كان يكبرهم بعشر سنوات فقط).

كان مودى يواجه مشاكل أخرى.. يريد أن يغير طبيعة عمله.. فبعد ثلاث سنوات من تدريس الفلسفة شعر بأنه يتعامل ببرود وجفاء مع الذين يقصون عليه تجارب الاقتراب من الموت.. إنه الآن لا يندفع وراء عواطفه وخيالاته ولكنه يحلل ويفسر ويستنتج، إن الفلسفة دراسة نظرية بحتة وهو يريد ممارسة مهنة عملية.

وقرر مودى أن يفعل مثل والده الذى التحق بكلية الطب بعد عودته من الجيش وأصبح جراحاً.. فاختار لنفسه مجال الطب النفسى. وفى سن الثامنة والعشرين بدأ مودى دراسة الطب فى جامعة «أوجستا» بولاية جورجيا، وهناك التقى بصديقه القديم جون الذى يدرس الطب النفسى ويرأس جمعية للأطباء الشبان.

ذات يوم قص رايموند على جون مشاهدات الناجين من براثن الموت الطبى، وأحس جون بأن الموضوع سيكون مثيراً للانتباه إذا ما طرح أمام أعضاء الجمعية الذين سئموا الموضوعات التقليدية. ولكن رايموند تردد خوفاً من أن يتعرض للسخرية، أو يُتهم بالجنون. واستطاع صديقه أن يقنعه.. فاستعرض أمام الأطباء وضيوفهم الرؤى التى سمع بها وحكى عن «**الرحلة خارج الجسد**» و «**طاقة النور التى تشع حباً**» محاولاً أن يصبغ كلامه بروح الدعابة حتى لا يبدو مجنوناً فى نظرهم.

وحدث ما لم يكن متوقعاً.. فما كاد مودى ينتهى من كلامه حتى طلب ستة أو سبعة أشخاص الحديث، لقد سمعوا بمشاهدات مماثلة من مرضاهم.. وكانت المفاجأة فى نهاية الجلسة هى اعتراف أحد الأطباء بتعرضه شخصياً لهذه التجربة الغريبة.

وأعطى الحاضرون لمودى عناوين المرضى الذين تعرضوا لمواقف مشابهة ليتصل بهم ويناقشهم بنفسه.

وبدأ الجميع يتحدثون عن هذه الجلسة حتى أن الصحف المحلية تناولتها وطلبت جهات عديدة من مودى أن يحكى فى ندوات خاصة رواياته التى بدأت تتزايد ويتجمع لديه منها عدد هائل.

قرأ أحد الناشرين مقالات الصحف عن هذه الرؤى، فكتب إلى مودى يطلب منه تأليف كتاب حول هذا الموضوع المثير، فوافق بعد إلحاح بعد أن اكتشف أن هذا الناشر لا يبحث فقط عن العائد المادى وإنما يريد بالفعل إشباع رغبته وفضول الناس فى معرفة المزيد عن هذا الموضوع.

بدأ مودى يجمع أكبر عدد من هذه القصص التى أطلق عليها «**تجربة الاقتراب من الموت**» (إن. دى. اى) وبحث عنها فى المستشفيات حيث وجد عشرات الحالات، واكتشف أن أحداً لا يستطيع أن يحدد طبياً **ما هو الموت؟** قد يكون توقف الوظائف الحيوية للجسم أو اتساع حدقة العين أو انخفاض

درجة حرارة الجسم إلى حد البرودة، لقد سمع مودى عن أشخاص مروا بغيبوبة كاملة وعميقة حتى إن جهاز رسم المخ الكهربائى أعطى إشارات بتوقف المخ مدة عشرين دقيقة متصلة.. وهو أمر يستحيل معه من الناحية الطبية أن يفيق هؤلاء الأشخاص ثانية. لقد اكتشف مودى أثناء تقدمه فى دراسة الطب أن الأطباء لا يعرفون عن الموت أكثر من الفلاسفة!.

وفى السنة الرابعة فى الكلية، ظهر كتاب «الحياة بعد الحياة».. لم يكن كتاباً طبياً، وإنما تقرير يسرد وقائع محددة محاولاً ربطها بالأساطير القديمة، نجح مودى فى جمع مائة وخمسين قصة تفصيلية عن حالات الغيبوبة أو الموت الطبى، وقام بشرحها ومطابقتها ومقارنتها مثل عالم الحفريات الذى يحاول تجميع العظام المتناثرة ليكون هيكلاً متكاملاً لحيوان ضخم انقرض منذ زمن بعيد، وقد حدد مودى خمسة عشرة سمة لتجربة الاقتراب من الموت:

السمة الأولى والتى تحدد ما بعدها: أن جميع من خاضوا هذه التجربة يؤكدون أن الرؤى التى شاهدوها، تعجز الكلمات العادية عن وصفها، فلا يوجد فى الحياة مثل ذلك الحب اللانهائى. كان مودى يعتقد فى البداية أنهم يبالغون فى عدم قدرتهم على وصف الرؤى، ولكن نفس الكلمات تكررت على شفاه أكثر من مائة حالة.. فلم يعد هناك مجال للشك. إنها خيالات غير مفهومة.. رحلة إلى شاطىء بحيرة من الفضة فى ضوء من الذهب وراء وادى يغلفه الضباب.. هذا ما يحاولون توصيله إلى من يسمعهم بحجة قوية، ونبرة مرتعشة تخنقها الدموع من شدة الانفعال بذكرى التجربة.

السمة الثانية: يستمع المحتضر أثناء غيبوبة الموت لمن حوله وهم يؤكدون أنه توفى.. فتنتابه دهشة شديدة.

السمة الثالثة: يحيط به إحساس بالسلام النفسى والهدوء.

السمة الرابعة: يخرج من داخله صوتٌ غير محدد.. فتارة يخرج هادئاً وتارة صاخباً.. تارة جميلاً وتارة مخيفاً.

السمة الخامسة: يشاهد المحتضر نفسه خارج جسده فى وضع المتفرج.. يرى جسده يحيط به المنقذون فيحاول لمسهم.. أحياناً يجد نفسه «بدون جسد» وأحياناً داخل جسد عديم الوزن وكأنه يتحرك خارج حدود الزمن. إنه يطفو بلا حاسة شم أو تذوق توجهه، ولكن بعين تلسكوبية أشبه بعدسة «زووم» قوية تتحرك من تلقاء نفسها لترى عن قرب أدق التفاصيل.. حتى سماعه للأصوات كان يتم من خلال حاسة السمع الداخلية فى كيانه الجديد بعد أن فقد الحواس التقليدية للبشر.. وسيطر عليه انطباع بأنه يتحرك بسرعة لانهائية وأنه صافى الذهن بدرجة لا مثيل لها.

السمة السادسة: يشعر المحتضر بشىء ما يجذبه بقوة وبسرعة إلى داخل حفرة عميقة أو نفق أسود أو كهف، أو فراغ أو وادٍ أو ماسورة.. مصطلحات مختلفة ولكنها جميعاً تشير إلى الظلام الذى يعنيه المحتضرون.

السمة السابعة: تظهر كائنات أخرى فى ذلك النفق.. إنهم فى أغلب الأحوال الأقرباء المتوفون الذين ينتظرون المحتضر لملاقاته ومصاحبته إلى العالم الجديد.

السمة الثامنة: يظهر فى قاع النفق نور ذو طبيعة خاصة يشتد ضياؤه كلما ازداد الشخص اقتراباً حتى يتحول إلى شمس باهرة يطلق عليها البعض «نور من الكريستال الخالص» وآخرون يسمونها «ضوء من الذهب» أو «العسل المضىء» أو «نور أبيض شديد مغلف بلون ذهبى».

ورغم اختلاف التسميات فإن جميع من شاهدوا هذا النور وصفوه بنفس الخصائص، فهو أقوى من أن يتخيله العقل البشرى ولا يضايق العين مثل الإضاءة العادية.. بل على النقيض كان النظر إليه متعة لأنه يشع **طاقة لا نهائية من الحب** وقد أدى الذوبان فى أشعة هذه الشمس المضيئة إلى تغير مفاهيم أصحاب التجربة ونظرتهم لحياتهم السابقة.

السمة التاسعة: تعود حياة المحتضر السابقة بأكملها إلى وعيه بكافة تفاصيلها وجميع مراحلها منذ الطفولة وفترة المراهقة وحتى النهاية.. تمر أمام عينيه كل لحظة من لحظات حياته حتى تلك المواقف التى كان يحاول كبتها داخل عقله الباطن لأنه لم يتصرف فيها بحكمة أو خرج فيها عن التقاليد.

كانت «إعادة سرد وقائع حياته» تتم بصوت داخلى يملؤه المرح.. ودون أى مجاملة أو محاولة لإخفاء الحقائق المخجلة.

السمة العاشرة: يفاجأ المحتضر بحاجز يمنعه من الاستمرار فى رحلته العميقة تجاه مركز الضوء الباهر.. إنه الحد الفاصل بين الحياة الأرضية والحياة القادمة.. قد يكون حاجزاً وهمياً أو بحيرة أو سياج أو حتى ضباب كثيف، وقد يكون مجرد انطباع بأنه لم يعد قادراً على استكمال الرحلة.. وينادیه هاتف قائلاً: (إن ساعتك لم تحن بعد وعليك بالعودة من منتصف الطريق والدخول فى جسمك المادى).

السمة الحادية عشرة: العودة إلى الحياة – والتى يعتبرها المحتضر فيما بعد ضربة حظ مجنونة نجا بها من الموت – يراها فى البداية نوعاً من العقاب القاسى فيحاول المقاومة.. إنها عودة للملل، للقيود والمعاناة. ويعتقد المحتضر أحياناً أنه قرر أن يصحو من غفوة الموت ولكنه أمر خارج عن إرادته.. فهو يجد نفسه من جديد وسط أهل الأرض ولكنه نادراً ما يتذكر تفاصيل اندماجه ثانية فى الحياة المادية.

السمة الثانية عشرة: يواجه المحتضر بعد عودته من التجربة مشاكل حقيقية عندما يحاول وهو لم يفق بعد من أثر تلك الرحلة رواية تفاصيلها للآخرين.. لا يهم من يستمع إليه ولكنه يشعر برغبة شديدة فى التحدث عنها للطبيب.. للممرضة.. للزوجة.. للصديق.. أو حتى لطفل، ويصدم عندما لا يجد أحداً يهتم بما يقول.. فينتابه حزن شديد قد يدفع به إلى حافة الجنون وينعزل عن العالم متوهماً أن تجربته مع الموت فريدة فى نوعها.

السمة الثالثة عشرة: يفاجأ العائد من رحلة الموت المؤقت أن محور اهتماماته الدنيوية قد اختلف عن ذى قبل وأن قوة ملاحظته وتركيزه قد تضاعفتا، فأصبح يهتم بأدق التفاصيل.. لون الخضرة.. حركات العصفور أثناء طيرانه.. إلخ. لقد جعلته التجربة أكثر إقبالاً على الموضوعات الفلسفية والكتب الدينية، وفجرت لديه رغبة هائلة فى دراسة أحد العلوم الحديثة.

لقد تغير من الداخل أيضاً فأصبح أكثر براعة وهدوءاً وتعاوناً مع الآخرين، كما أصبح أميناً مع نفسه يواجهها ويحاسبها بشدة. وأصبحت بصيرته أكثر صفاء ونقاء فأتاحت له تخمين ما يدور فى خلد الآخرين وقراءة أفكارهم.. فبدأ الناس يرتاحون إليه ويلجئون لاستشارته فى مشاكل حياتهم.

السمة الرابعة عشرة: تختفى تماماً الرهبة من الموت.. هل أصبح العائد مجنوناً أم حكيماً؟.. إنه واثق تماماً بأن الأمر لن يكون سوى تكرار للتجربة السابقة فيلتقى ثانية بالضوء الباهر.

وبعكس ما كان يعتقد فى الماضى فهو لن يذهب بلا عودة ولكنه سيستيقظ ثانية.

السمة الخامسة عشرة: هى فى الواقع إضافة يؤكد من خلالها رايموند مودى أن إمكانية التحقق من أقوال أصحاب التجربة تجعل رواياتهم أكثر وضوحاً.. ولكن كيف يمكن للآخرين أن يتأكدوا إلا من بداية التجربة فقط، أو مرحلة **الخروج من الجسد** حيث يستمع المحتضر ممن حوله إلى تأكيد وفاته ويصف تفاصيل دقيقة عن الغرفة التى كان يحتضر فيها والممرضات اللاتى حاولن إنقاذه مع الأطباء.. إلخ.

وينهى المؤلف كتاب «الحياة بعد الحياة» بمجموعة من التساؤلات: لماذا لم نسمع من قبل عن العائدين من رحلة الموت؟. هل يمكن أن تكون هذه الرؤى مجرد حلم أو هلوسة يتسبب فيها مثلاً نقص كمية الأكسجين التى تصل للمخ؟ أم هى مجموعة من التأملات ؟ وهل يمكن مطابقة تجارب الاقتراب

من الموت «بالانعزال الحسى» للبروفيسور ليالى ؟ هل يمكن أن يجيد جميع العائدين حبكة رواياتهم ؟ وهل ماتوا فعلاً ولو للحظة واحدة ؟

ويجيب مودى على السؤال الأخير.. إنهم لم يموتوا بدليل عودتهم للحياة مرة أخرى.. ولكن كيف يتوقف القلب والتنفس والمخ عن العمل ومع ذلك يظل الانسان مرتبطاً بالحياة ؟! إن الطب وحده لا يستطيع الإجابة عن هذه التساؤلات.

ويعترف مودى فى نهاية كتابه أنه بعد إنصاته لهذا الكم من الروايات بدأ يعتقد أنه هو نفسه قد عاش تلك التجربة فلم يستطع أن يفصل انطباعاته الشخصية عنها.. إن أى شخص يستمع لاثنين فقط من تلك الرؤى لابد وأن يتأثر فكره وكذلك رؤيته للحياة.

بينما كان مودى يقوم بتصحيح بروفات الكتاب تلقى اتصالاً تليفونياً من صديق يخبره فيه بأن إليزابيث كوبلر – روس ستحضر قريباً إلى أطلنطا لإلقاء محاضرة، كان ذلك فى عام ١٩٧٥ عندما كانت إليزابيث فى قمة مجدها، وكان مودى قد سمع عنها الكثير ولكنه لم يلقها من قبل، واقترح عليه الصديق أن تقوم الطبيبة الشهيرة بعمل مقدمة لكتابه، ورحب مودى والناشر بالفكرة وأرسلا إليها نسخة من بروفات الكتاب فى شيكاغو، وعندما حضرت إليزابيث إلى اطلنطا كان مودى فى استقبالها فى المطار فقالت له «لقد اكتشفت نفس الشىء مثلك تماماً».

وبعد إلقاء المحاضرة كتبت إليزابيث مقدمة من ثلاث صفحات جاء فيها: «هذا الطبيب الشاب يتسم بالشجاعة.. لقد أعلن الحقيقة واضحة رغم ما سيجره ذلك عليه من متاعب من قبل العلماء ورجال الكنيسة الذين يكرهون أن يتعدى أحد على اختصاصاتهم).

صدر الكتاب فى نوفمبر ١٩٧٥ واستقبلته الصحافة استقبالاً حافلاً، ونفد توزيعه بسرعة حتى اضطر الناشر إلى إصدار خمس طبعات، كذلك قام الناشر

الأمريكى «بنتام» من نيويورك بشراء حقوق الكتاب لتحويله إلى سلسلة كتب للجيب، ومع ارتفاع أرقام المبيعات بدأ الكتاب يترجم إلى عدة لغات فى الخارج.. وبقدر سعادة مودى بهذا النجاح غير المتوقع بقدر ما تملكه الرعب من أن تستخدم إحدى الطوائف المتطرفة بمعتقداتها الغريبة والتشاؤمية هذا الكتاب كوسيلة تحفز بها أتباعها على الانتحار، فكانت تنتابه أثناء النوم كوابيس يرى فيها بعض المجانين يدفعون صغار السن من الشباب إلى الانتحار قائلين لهم: «هيا نموت! طالما أن الموت بهذه الصورة الجميلة» !

كان مودى يصر على أن رؤى الناجين من براثن الموت كانت خالية تماماً من أى تلميحات عن فكرة الانتحار.. فالحياة طريق طويل ليس من حق أحد أن يعترضه.. ولكن قلق المؤلف من احتمال تحريف بعض المجانين عن قصد لمضمون الكتاب ورسالته جعله يفكر على الفور فى إصدار ملحق بعنوان «تأملات حول الحياة بعد الحياة» خصص فيه فصلاً كاملاً. لفكرة الانتحار مؤكداً أن تجربة الاقتراب من الموت تخلق شعوراً معاكساً تماماً لفكرة الانتحار وأن رغبة العائدين فى التمتع بالحياة واستثمار كل لحظة فيها قد تضاعف عشرات المرات بعد هذه التجربة.

إن مودى نفسه لم يلتقِ بالعديد من حالات «إن. دى. إى» التى نتجت عن محاولات فاشلة للانتحار، ولكنه لم يدرك ذلك إلا فيما بعد من خلال الإحصائيات التى قامت بها مؤسسة «إياندس».. وإن كان قد راوده الشك فى أن تمثل تلك الحالات فئة مستقلة بذاتها.

وبعد فترة تبين للمؤلف أن كتابه لم يتسبب فى أى نزعات انتحارية فبدأ يستعيد هدوءه الطبيعى مؤكداً أن حالات «إن. دى. إى» تعيش بيننا وأن المنطق العلمى مُجبر على قبولها وعدم تجاهلها، ولكن كيف يمكن تفسير عدم اهتمام أى عالم آخر بتتبع هذه الظاهرة ؟

لقد تطلبت الإجابة على هذا السؤال عدة سنوات.

حقيقة .. أم هلوسة ؟!

مايكل سابوم هو الرجل الذى دفعتنى أعماله إلى تأليف هذا الكتاب.. فقد انتظرت أن يهتم أحد أطباء القلب بهذه الظاهرة حتى أستطيع تناولها بجدية.

ومايكل سابوم رجل فارع الطول من ولاية تكساس يبلغ طوله ١٩٥سم. يرتدى قميصاً كاروهات ورباط عنق حريرية.. يبدو متحفظاً بعض الشىء، وهو عضو فى «أسا» أو الفرع الطبى من مؤسسة «ألفا بيتا كاباه» التى تضم نخبة من قدامى التلاميذ الأمريكيين المتفوقين بمعدل ١٠٪ من خريجى كل كلية. بدأ سابوم دراسته للطب في هيوستن ثم تخصص فى علاج القلب فى فلوريدا حيث أصبح طبيباً مشهوراً ونابغة فى مجاله. إن أمراض القلب تخصص تكنولوجى من الدرجة الأولى لاعتماده على العلاقة الوثيقة بين الإنسان والأجهزة الطبية. لذلك يتعامل الفنيون مع المريض ببرود شديد، فالمريض يصبح أمامهم مجرد جسد!

فى عام ١٩٧٦ وبعد أن انتهى سابوم من دراسة تخصصه بدأ يتأثر بالناحية العملية منه، فهو يعمل ستة عشر ساعة يومياً مما اضطره لهجر حياة رعاة البقر التى كان يحياها من قبل بحكم نشأته فى أقصى الغرب الأمريكى، كل ما تبقى له من حياته السابقة هو المواظبة على الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد من كل أسبوع مع زوجته.. ولكن حتى هذه العادة كانت تعطى انطباعاً خاطئاً عنه، فقد فقد إيمان المسيحى القوى وأصبح يرجح الجانب المادى على الجانب الروحانى، إنه طبيب يؤمن بالتكنولوجيا بالدرجة الأولى ويفخر بانتمائه لمجموعة من أفضل الأطباء الفنيين فى العالم.

ذات يوم أحد وبعد إقامة الشعائر الدينية وقفت امرأة متعمقة فى الدين لتتكلم عن كتاب رايموند مودى وسألت الجميع عن رغبتهم فى إثارة موضوع «الحياة بعد الموت» خلال أيام الآحاد القادمة.

كان الموضوع مثيراً لهم بعد أن مر وقت طويل لم يستمع فيه رواد الكنيسة إلىقصص مثيرة، ولم يستطع الكاهن أن يعترض رغم رفضه الداخلى لهذه الأمور فترك المرأة الشابة على هواها.

اسمها سارة كروتزيجز.. وهى سمراء نشطة تعمل أخصائية اجتماعية فى عيادة لعلاج مرضى الكلى، وقد تعرفت فى الجمع على الدكتور سابوم فوجهت إليه سؤالاً: «ما رأيك يا دكتور فى الرؤى التى يشاهدها الأشخاص وهم فى حكم الموتى من الناحية الطبية» ؟

التفت الجميع نحو الطبيب الشاب ليسمعوا تفسيره العلمى ولكنه قال وقد بدت على وجهه ملامح الضيق: «إننى لا أدرى عما تتحدثين يا آنسة كروتزيجر، لقد اشتركت فى العشرات من عمليات إنعاش القلب وخاصة فى المراحل المتأخرة دون أن ألاحظ شيئاً مما ذكرت على مرضاى».

سرت همهمة فى القاعة واحمر وجه سارة من الخجل، وقبل أن يعود إلى مقعده قال سابوم حتى ينهى المناقشة: إن الأمر ليس إلا نوعا من المزاح من جانب بعض الصحفيين الأوغاد الذين يجب تجنبهم تماماً مثل وباء الكوليرا! وضج الجميع بالضحك.

لم تتراجع سارة وأعلنت أنها ستثير هذا الموضوع رغم معارضة الطبيب، بل وطلبت منه على الملأ مساعدتها قائلة: «طالما أنك متشكك إلى هذا الحد فى تلك الرؤى فإن أحداً لن يستطيع اتهامك بالمجاملة أو المحاباة».

شعر سابوم أنه فى وضع حرج فاضطر للموافقة بعد أن أكد أنه سيكون مجرد مستشار ليحدد فقط المعلومات الطبية عن حالات الوفاة.

ما هو الموت؟ هذا هو السؤال الذى شغل بال الجمع وكذلك سابوم فى الكنيسة.. فأخذ يبحث عن تعريف لكلمة الموت فى القواميس الطبية.. ووجد تعريفاً مفصلاً للبروفيسور «نجوفسكى» وهو طبيب روسى وعضو المعمل الفسيولوجى التجريبى للإنعاش بأكاديمية العلوم الطبية فى الاتحاد السوفيتى، وتعجب سابوم من أن يضع طبيب روسى تعريف الموت للأمريكيين.

ميز العالم الروسى بين الموت الطبى والموت البيولوجى، ففى **الموت الطبى** تتوقف الوظائف الكبرى فى جسم الإنسان مثل التنفس والقلب والمخ.. ولكن من الممكن أن يعود الشخص إلى الحياة بعد رحلة الموت الطبى لأن ذلك لا يتضمن الموت البيولوجى الذى يتوقف فيه عمل جميع خلايا الجسم وخاصة الخلايا العصبية.

والموت البيولوجى يحدث بمعدل أبطأ من الموت الطبى.. ولكن متى بلغ مرحلة معينة لا يمكن عودة الحياة للإنسان بعدها حتى لو استطاع الأطباء عن طريق التدليك الصناعى انعاش القلب والتنفس مرة أخرى فإن المخ عندما يعبر تلك المرحلة البيولوجية الحرجة يصبح «غير صالح للاستخدام».

ويؤكد الدكتور نجوفسكى أن **الموت البيولوجى** (موت الخلايا) لابد وأن يؤدى إلى **الموت الطبى** (توقف الوظائف الكبرى) خلال فترة قصيرة لا تتجاوز الخمس دقائق.

بحث سابوم عن تعاريف آخرى للموت ولكنه وجد أن تعريف العالم الروسى هو الأكثر شمولاً رغم أنه لا يخلو من ثغرات.. كيف يمكن أن نعيش تلك «الاستمرارية التى تتوقف عند حد معين» فى الموت البيولوجى؟ وماهو ذلك الحد أو تلك المرحلة التى يستحيل بعدها العودة للحياة ؟!

عندما التقى سابوم بسارة كورتزيجر طلبت منه أن يقرأ كتاب مودى.. تمالك الطبيب نفسه حتى لا يبدى غضبه وأمسك بالكتاب الصغير يقلب

صفحاته وبعد نصف ساعة قال لسارة: إنه احتيال ونصب.. فهذا الكتاب لا يخضع لأى منطق علمى.. حتى المؤلف يعترف بذلك منذ الصفحة الأولى.

– وماذا عن الشهود الذين قصوا تجاربهم فى رحلة الموت؟

– اسمعى.. إن ذلك الشخص يصور من خلال عشرة أو خمسة عشر سمة الشكل العام لتجربة تأملية لا نعرف عنها شيئاً. من هم أولئك الأشخاص؟ وكيف عثر عليهم؟. وما السبب الذى أدى إلى وفاتهم طبيا؟ وما هو طول فترة ذلك الموت الطبى المؤقت؟ ثم ما هى معتقدات هؤلاء الأشخاص؟ وكيف نثق ونتأكد من رواياتهم؟.. إنه أمر مشوش.. بصراحة إننا نضلل أنفسنا بتناول أمور هزلية.

اضطرت سارة للاعتراف بأن الطبيب على حق فى معظم النقاط التى أثارها ولكنها قررت أن تستفيد من تلك الثغرات لتدفعه إلى شىء آخر فأشارت عليه أن تقوم خلال محاضراتها بملحق الكنيسة بعرض نماذج من مرضاه الذين أشرفوا على الموت حتى ينهى تماما النقاش فى هذا الموضوع، ويؤكد للناس أن الرؤى المزعومة لا أساس لها من الصحة.

لم يكن هناك أى مشكلة فى وجود أشخاص أفلتوا فى اللحظات الأخيرة من براثن الموت، ففى عيادة الكلى التى تعمل بها سارة يوجد كثير من حالات الغيبوبة العميقة، كما أن عمل سابوم فى مجال الرعاية المركزة للقلب يزخر بتلك الحالات.

وبرغم استيائه من الفكرة فقد أذعن أمام رغبة سارة للمرة الثانية.

فى اليوم التالى ذهب كل منهما إلى عمله آملاً فى التوصل إلى شىء مفيد من خلال مناقشة هادئة مع الناجين من الموت دون مصارحتهم بهدف الحوار – مثلما فعل مودى مع حالاته – وتطلع سابوم فى ملفات مرضاه فوجد عشرة منهم كانت قلوبهم قد توقفت عن النبض، وكادوا يصبحون فى عداد الأموات

لولا تدخل الأطباء السريع.. وذهب الطبيب إلى بعضهم ممن لا يزالون تحت العلاج بالمستشفى.

وكان الحديث يبدأ بالأسئلة التقليدية عن الضغط والنبض والحرارة والشهية ثم يتطرق إلى شعورهم قبل وبعد إصابتهم بالأزمة القلبية، وكان السؤال الأخير دائماً «ماذا تذكر عن اللحظة التى توقف فيها قلبك عن النبض» ؟

لم يفهم المريضان الأول والثانى مغزى السؤال حتى بعد أن أعاده سابوم عليهما وتعجبا كيف يمكن أن يتذكرا شيئاً فى لحظات فقدان الوعى.

كانت الحالة الثالثة لامرأة فى الأربعينات من عمرها كادت تموت أكثر من مرة بسبب أزمة قلبية، ولكنها جاءت هذه المرة إلى المستشفى لعمل كشف دورى. وعندما وجه لها الطبيب نفس السؤال أبدت دهشتها وسألته: «لماذا هذا السؤال؟» فأجابها سابوم بأن البعض يذكر أشياء حدثت لهم فى تلك اللحظات، وسألته السيدة إن كان طبيباً نفسياً، ولما أكد لها أنه متخصص فى القلب أخذت تفكر برهة ثم قالت «أقسم لك بأن ما سأقصه عليك حدث بالفعل.. ولو أنك ستعتقد أننى مجنونة».

صدم الطبيب من كلام السيدة كأن حية رقطاء لدغته وجلس يستمع إليها فى ذهول وهى تقول: «فى البداية لم أفهم شيئاً مما يحدث لى، فقد وجدت نفسى فجأة أحلق فى الحجرة بالقرب من السقف..». وحكت السيدة تجربة ممتعة عايشتها عند اقترابها من حافة الموت. وأكدت فى النهاية أنها كادت تذوب فى ضوء شمس كبرى تشع نوراً وحبا لم تر مثيلاً لهما على كوكب الأرض.. فتولد لديها انطباع بأنها هى الكون كله رغم أنها لم تفقد وعيها على الإطلاق !

فوجىء سابوم بتلك الرواية.. إنه يتابع حالة هذه السيدة عن قرب منذ شهور طويلة ولم يحدث من قبل أن صارحته بتلك المغامرة الغريبة، أنها امرأة بسيطة جداً ولا يعقل أن تكون من ذلك النوع المولع بالكذب، فمن أين لها

بتلك المعلومات ؟.. من الصحافة مثلاً ؟.. الأمر الأكثر غرابة هو نبرة صوتها وتأثرها الشديد ونظراتها الهادئة الواثقة، وهى تقص تجربتها مع الموت عن قناعة وإيمان شديدين. شعر سابوم بقشعريرة تسرى فى جسده وهو ينصت للسيدة فشكرها وعاد إلى مكتبه وقد تملكته حيرة شديدة.

واتصلت به سارة كروتزيجر لتبلغه أنها عثرت هى الأخرى على حالة نموذجية لتجربة الاقتراب من الموت بين مرضى العيادة التى تعمل بها، وازداد ارتباك سابوم واضطرابه وصوت السيدة صاحبة التجربة يرن فى أذنيه دون توقف.

فى تلك الليلة عاد سابوم إلى منزله سيراً على الأقدام. كان يفكر فى هدوء ويتساءل «ماذا يعرف عن الموت ؟» إن الموت بالنسبة له كطبيب يعنى شيئاً واحداً: العدو الشرس الذى يجب محاربته بجميع الوسائل..

عندما كان طبيب امتياز كانوا يطلقون على الحالات الحرجة التى تحتضر رقما كودياً «٩٩» بمعنى أنها تحتاج لإسعاف سريع فور حضورها إلى قسم الاستقبال بالمستشفى، وعندما تخصص سابوم فى أمراض القلب ارتبط بمرضاه وكان يصدم بشدة عند وفاة أحدهم، ثم اعتاد أن يتكيف مع تلك الظروف الصعبة حتى جاءت سارة كروتزيجر بهذا الكتاب الغريب لتحدث بلبلة فى أفكاره.

فى محاضرة يوم الأحد.. كان الحظ حليف الاخصائية الاجتماعية الشابة، فقد نجحت فى إثبات معتقداتها ولم يستطع الطبيب سوى الاعتراف بعثوره على إحدى الحالات التى نجت من الموت، والتى قصت عليه تجربة غريبة لم يسمع بها من قبل. وانتابه الضيق وهو يرقب رواد الكنيسة يحملقون فيه ويبدون استعدادهم لتصديق أى شىء يقال لهم.

كان الموضوع غير منطقى بالنسبة له، فهذه الظاهرة التى يتحدث عنها رايموند مودى فى كتابه لا يمكن أن تكون ذات أهمية ولا يلتفت إليها أحد غيره من أطباء العالم.

لقد ناقش الأمر مع قدامى الأطباء بالمستشفى، ولم يتأثر أحد منهم على الإطلاق بما يرويه الناجون من الموت. آه! لولا نبرة الثقة فى صوت تلك السيدة وهى تحكى تجربتها – نبرة صادقة تلاحقه وتؤرقه – لرفض تماماً تصديق هذا الهراء.

إن مايكل سابوم من هذا النوع الواقعى الذى يرفض تصديق أى شىء لم يره أو يلمسه بنفسه، والآن وقد بدأت هذه الظاهرة تفرض نفسها على تفكيره فإنه لا يستطيع تجاهلها. لذلك وجد أن التصرف العلمى الصحيح هو السعى لحل هذا اللغز.

اتصل طبيب القلب بسارة كروتزيجر واقترح عليها القيام بدراسة جادة حول تلك الظاهرة. كادت الاخصائية الاجتماعية تطير من الفرح لنجاح محاولتها، ووضعا معاً خطة بحث جادة تتضمن عمل قائمة بالأشخاص الذين أفلتوا من براثن الموت الطبى والمسجلة أسماؤهم فى دفاتر المستشفى ثم اختيار عينة عشوائية من بين حوالى مائة شخص ومواجهتهم بأسئلة محددة تكشف عمق تجربتهم بدون مصارحتهم بالهدف الحقيقى من الدراسة.

واستمرت الدراسة أربع سنوات ما بين عام ١٩٧٧ و١٩٨١ وكانت قد بدأت فى فلوريدا ثم استكملت فى جورجيا عام ١٩٧٨ بعدما عُين سابوم فى منصب أستاذ مساعد للقلب فى كلية طب «إيموري» بأطلنطا وهى إحدى أعظم كليات الطب فى أمريكا. وقلبت هذه السنوات الأربع حياة طبيب القلب رأساً على عقب.

كانت العقبة الأولى التى صادفت سابوم وسارة هى التوصل إلى تعريف دقيق للموت الطبى، فكيف يمكن التأكد من أن توقف القلب لدى هؤلاء المرضى يعنى توقف المخ عن ممارسة أى نشاط؟ إنه أمر لا يمكن تحديده إلا من خلال جهاز رسم المخ الكهربائى.. وبعض الحالات فقط هى التى برهنت لسابوم على موت طبى مؤكد من خلال إشارات رسم المخ.

قرر الباحثان اتباع طريقة عملية لحصر الحالات التى يمكن دراستها، فكانا يرفضان الحكم الفردى، ويأخذان فقط بالرأى الجماعى لفريق الإنعاش الذى يقرر أعضاؤه أن هذه الحالات قد سجلت طبيا فى عداد الأموات لفترة بسيطة. ومن ناحية أخرى كانت تجارب الاقتراب من الموت الحقيقية تظهر واضحة فى انفعالات أصحابها وهم يستعيدونها من جديد، وقد استبعد الباحثان حالات المرض العقلى التى قضت ولو فترة قصيرة فى إحدى المصحات النفسية قبل إشرافها على الموت.

خلال أربع سنوات أجرى الباحثان حواراً كاملاً مع ١١٦ شخصاً من الذين أفلتوا من براثن الموت.. امتد بعضه عدة ساعات والبعض الآخر استغرق عدة أسابيع كاملة واستقر رأيهما على اختيار ٨٨ حالة فقط لأشخاص يتمتعون بكامل قواهم العقلية ويمثلون نموذجاً حقيقياً لأفراد الشعب الأمريكى، ثم استبعد سابوم فى النهاية عشر حالات أخرى واجهت الموت الطبى تحت تأثير التخدير.

هكذا استقر الرأى على ٧٨ شخصاً خاض ٣٢ منهم تجربة الاقتراب من الموت (أى ٤٣٪ منهم)

لم يستطع سابوم خلال دراسته الطويلة لهذه الحالات أن يجد أى علاقة ثابتة بين وقوع تجربة «إن. دى.إى» لشخص ما وبين عمره أو جنسه أو جنسيته.

كذلك لم تلعب مهنة هؤلاء العائدين أو معتقداتهم الدينية أو حتى السبب الذى أدى إلى وفاتهم طبيا أى دور محدد فى احتمالات تعرضهم لهذه التجربة.

كان هناك شىء واحد يميز مجموعة العائدين الذين خاضوا تجربة «إن. دى. إى» عن غيرهم من الناجين الذين لا يحملون أىّ ذكريات عن تلك اللحظات الحرجة فى حياتهم..

لقد فقدت الفئة الأولى أى إحساس بالخوف والرهبة من الموت بينما لم يحدث ذلك للفئة الثانية.

ظل سابوم خلال العام الأول من الدراسة متشككاً فى النتائج التى يتوصل إليها فقد كان مقتنعاً تماماً بأن هناك عوامل خفية مؤثرة فى تلك التجارب.. وحثه ذلك على مزيد من البحث ومحاولة اكتشاف التفسيرات الإنسانية أو العلمية لقد تعرضت معتقداته كطبيب غربى ينتمى للقرن العشرين إلى اختبارات صعبة بسبب الروايات شبه المجنونه التى صادفها خلال هذه الدراسة.

فلنأخذ مثالاً على ذلك، الحالة رقم ٣٩ ولنطلق عليها اسم «جى».

كان جى وفصيلته فى الجيش الأمريكى يستعدون لإطلاق قاذفة صواريخ على أحد مخازن الذخيرة خلال حرب فيتنام، وفجأة سقط الجندى الذى يحمل قاذفة الصواريخ على الأرض مصاباً بطلق نارى فى رأسه بينما كان يحاول وضع يده على الزناد، فارتدت القذيفة إلى المعسكر الأمريكى.. ووجد جى نفسه يرتفع فى الهواء ثم يسقط على بعد عشرة أمتار للوراء مصاباً بطلقات فى رأسه. فأظلمت الدنيا من حوله ولم يعد يرى شيئاً ثم استرد وعيه وشعر بأنه سيموت.

فى تلك اللحظة ظهرت أمامه فجأة وسط الضباب مجموعة من الجنود الفيتناميين. وفى وضع المتفرج وعلى ارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار رأى «جى» الأعداء يعبثون بجثث زملائه.. يأخذون نقودهم وينزعون متعلقاتهم وأحذيتهم أما هو فكان يشعر بهدوء غريب وتساءل عن فرصته فى مباغتة هؤلاء الأعداء والقضاء عليهم وحده خاصة وأنهم يعتقدون أنه قد مات، ورأى «جى» مدفعاً رشاشاً واقترب ليمسك به ولكنه لسبب غير مفهوم لم يستطع أن يصل إليه وشعر فجأة بشىء غريب.. لقد جاء دوره.. إن الفيتناميين يعبثون الآن بجثته!

لم يستطع «جى» أن يفهم ما يحدث له.. إنه يرى جثته من ارتفاع ثلاثة أمتار وقد أصبحت مشوهة، لقد فقد إحدى ذراعيه وتلفت ركبتاه تماماً..

إنها صدمة مروعة أن يرى نفسه بهذه الصورة، ورغم ذلك فإن هدوءه وسكينته لم يفارقاه للحظة، وفجأة خامره شعور أكيد بأنه ميت. واكتشف أنه ليس وحيداً وإنما معه مجموعة من الجنود الذين قتلوا فى المعركة.

كان يشعر بهم رغم أنهم «بلا أجساد» على حد قوله.. وحينما طلب منه الباحثان فيما بعد تفسير هذه المشاهدات الغريبة.. قال «جى» إنه لم يكن يرى هؤلاء الجنود القتلى ولكنه كان يشعر بوجودهم بنفس الوضوح الذى يرى فيه شخصاً ماثلاً أمامه، أما عن كيفية الاتصال بهم فكانت تتم بدون مشاكل.. ربما عن طريق تناقل الخواطر والأفكار عن بعد، والغريب أن (جى) وزملاءه كانوا يشعرون براحة كبرى فى صورتهم الجديدة، وكانوا جميعا يفضلون عدم العودة لحياة الأرض أو دنيا البشر.

قطع وصول طائرات الهليكوبتر الأمريكية الحوار الدائر بين الجنود المتوفين.. فقد جاء الأمريكيون لنقل جثث زملائهم وحمل اثنان منهم جثة «جى» ووضعوها فى حقيبة بلاستيك زرقاء ثم قذفا بها داخل الطائرة.. وبنفس الهدوء والسكينة تابع «جى» من وضع المتفرج سير الطائرة حتى وصولها بعد مسافة قريبة إلى القاعدة العسكرية, ورأى سيارة لورى ضخمة تحمل الحقائب الزرقاء وتنقلها للمستشفى ومنها إلى المشرحة حيث أخرجت هناك الجثث ووضعت فوق المنضدة.

وفى جنح الليل، دخل إلى المشرحة رجل يرتدى قميصاً أبيض واقترب من «جى» وقام بجرحه فى الفخذ ليحقنه بسائل أخضر.. حتى يتم تحنيطه.. ولدهشة الرجل وجد بعض الدماء تسيل من الجثة.. إنه لازال حياً! وهرول الرجل منادياً الطبيب الذى حضر بعد خمس دقائق ومعه حقنة أخرى تحتوى على مادة «الأدرينالين» فحقن بها قلب «جى» وخلال عشر ثوانى بدأ قلبه ينبض من جديد ووجد «جى» نفسه داخل جسده مرة أخرى.

كان لسابوم حوارات طويلة مع الحالة رقم ٣٩ حاول من خلالها أن يعرف كيف كان ينتقل من مكان لآخر أثناء تجربته مع الموت، قال الجندى السابق:

– لقد كنت أشبه بعدسة مكبرة للكاميرا.. كان يكفى أن أرغب فى رؤية شىء ما حتى أجده فوراً أمامى، وكانت عيناى تتأقلمان بسرعة فى أى اتجاه وأى مسافة. وعندما كان جسدى ممدداً فى المشرحة زرت مكان انتظار السيارات ومغسلة الثياب فى المستشفى العسكرى الذى كنت موجوداً به.

– ولماذا المغسلة بالذات؟

– لقد سمعت ضجة كبرى وأردت معرفة مصدرها.. وكانت فى المغسلة حيث توجد غسالتان قديمتان تحدثان صوتاً مزعجاً أثناء التشغيل وعندما أفقت من غيبوبتى وعدت للحياة سألت إحدى الممرضات أن تصف لى المغسلة، وبالفعل وصفت لى ما سبق أن شاهدته أثناء تجربتى الغريبة.

قام سابوم بتقسيم أصحاب تجربة الاقتراب من الموت إلى فئتين منفصلتين: الأولى أطلق عليها تجارب الهلوسة الذاتية (إحساس مرضى بتوهم رؤية الذات) وتضم الأشخاص الذين شاهدوا أنفسهم خارج جسدهم فى نفس المكان والزمان الذى حدثت فيه الواقعة، والثانية سماها «التجارب الاستعلائية» التى يسمو فيها الفرد فوق الواقع المادى وتضم الذين ذهبوا فى رحلة بعيداً عن كوكب الأرض والتقوا بكائنات سماوية.

إن أصحاب التجربة الثانية غالبا ما يذكرون «**طاقة نور مبهرة**» و«**حب لانهائى**».. وطبيعة تعجز الكلمات عن وصفها يذوب فيها الفرد دون أن يفقد وعيه. هذا النور يغمر بلداً أسطورياً يلتقى فيه صاحب التجربة مع الأقرباء والأصدقاء الذين سبقوه إلى عالم الموتى فى مدن من الكريستال الشفاف.

وباختصار فإن هذه المشاهدات تثير اهتمام الأطباء النفسيين وليس أطباء القلب، لذلك قرر سابوم تركيز اهتمامه حول الفئة الأولى التى تضم تجارب الهلوسة الذاتية.

فى الواقع إن معظم تجارب «إن. دى. إى» حتى الاستعلائية منها تحتوى على جزء من «الهلوسة الذاتية». إن هذا الجزء من وجهة نظر سابوم – هو مفتاح اللغز والحلقة الأولى التى يجب التوقف عندها والاهتمام بها لأنها تمثل بداية التجربة وعليها يتوقف كل شىء. فعندما يؤكد العائد أنه قادر على استرجاع كل ما حدث من حوله عند خروجه من جسده يكون من المتوقع أن يعيد سرد جميع التفاصيل التى تخللت موته الطبى المؤقت وغيبوبته العميقة.. فإذا تضمنت مشاهداته أخطاء واضحة، كما يتوقع سابوم، فإن ذلك يعنى أن الأمر لا يعدو كونه مجرد هلوسة أو تهيؤات أو هذيان، وهى ظاهرة هامة تؤكد وجود خلل نفسى لدى ذلك الشخص.. عند ذلك الحد وصل سابوم فى دراسته إلى نهاية المطاف.

إن بعض الحالات مثل «جى» الذى حلق بروحه فوق أرض المعركة استطاعت بالفعل أن تذكر تفاصيل محددة.. فقد تم بالفعل تركيب ركبتين صناعيتين له، ووضعت فى يده اليمنى شريحة من الصلب، ووجد أثر جرح بطول فخذه اليمنى، إلا أن ذلك كله لا يؤكد صدق روايته.

كانت حالات «إن. دى. إى» التى تسببت فيها الحرب رغم إثارتها للمشاعر لاتمثل سوى جزءٍ ضئيلٍ من العينة المختارة فى البحث، فمعظم الحالات تنتمى إلى السنوات الأخيرة حيث مر أصحابها بتجاربهم فى المستشفيات المدنية مما أتاح الفرصة لسابوم لدراستها عن قرب.

فى كل مرة يشير أحد الناجين إلى مروره بتجربة «إن. دى. إى»، كان سابوم يبحث الحالة معتمداً على تقديرات الأجهزة الطبية فى وحدة العناية المركزة، وخاصة جهاز التدليك الصناعى الذى ينشط القلب بصدمات كهربائية قوية لإعادة النبض إليه. كان هذا الجهاز هو الحد الفاصل فى تقييم الموت الطبى للمريض وقد خصص سابوم صفحات كاملة عن جهاز تدليك القلب فى أبحاثه اللاحقة عام ١٩٨٢ تحت عنوان «ذكريات الموت».

فى المرة الأولى التى ذكر فيها أحد أصحاب التجربة تفاصيل محاولة إنعاش قلبه كانت صدمة جديدة لسابوم بعدما تأكد أن رواية العائد تتطابق تماماً مع التقرير الطبى للحالة.. ولكن هل يتذكر أصحاب تجربة الهلوسة الذاتية جميع التفاصيل.

لقد وصفت معظم الرؤى هذا الجهاز بكلمات بسيطة «جهاز أزرق اللون، مغطى بأكمله بأزرار ومثبت به مضربان فى نهايتهما قبضتان، وقد قامت الممرضة بحك هذين المضربين معا قبل استخدامهما.

وتسأل سارة كروتزيجر العائد:

– ولماذا – من وجهة نظرك – تفعل الممرضة ذلك؟

– لقد كان عالقاً بالمضربين شيئاً يشبه الجيلاتين، وأعتقد أنها كانت تريد توزيعه بالتساوى على القبضتين قبل وضعهما على صدرى.

– ويسأل سابوم: أين ذلك بالضبط؟

ويشير العائد إلى موضع القبضتين قائلاً: هنا.. وهنا.. وفى تلك الأثناء كان الطبيب يراقب عداد الجهاز.

– هل استطعت رؤية هذا العداد بدقة؟

– بكل تأكيد.. يوجد به مؤشر ثابت وآخر متحرك.. كان المؤشر الثابت يتحرك مع كل صدمة كهربائية توجه إلى صدرى، أما المؤشر المتحرك فقد وصل فى المرة الأولى إلى ثلث تدريج العداد، وفى الثانية إلى منتصف التدريج وفى الثالثة حتى ثلاثة أرباع التدريج.

– كم من الصدمات الكهربائية تلقيت؟

– ثلاثة

– هل أنت متأكد؟

– بالطبع.. لو كنت موجوداً لما ارتبت فى الأمر يادكتور.. ففى كل مرة كان جسدى ينتفض ويرتفع بمعدل نصف متر فوق السرير من شدة الصدمة الكهربائية. الأمر الغريب أننى كنت فى قمة هدوئى.. ولكننى كنت أرى بوضوح شعر صدرى المحترق.

– من أين رأيت هذا المشهد؟

– كنت دائماً فى الجزء الأيسر من الحجرة بالقرب من السقف.

ورغم كل هذه التفاصيل الدقيقة التى يرويها العائدون فإن الأمر المحير فعلاً هو نوعية هذه التفاصيل أكثر من حجمها، فقد ذكر عامل متقاعد فى سن المعاش «الحالة رقم ١٩» فى الدراسة – والتى استبعدت بعد ذلك لأنها كانت تحت تأثير التخدير الكلى شكل قلبه عندما كان الأطباء يجرون له عملية جراحية فى القلب.

«كان القلب مختلفاً تماماً عما كنت أتصوره.. ضخم الحجم حتى بعد أن استأصل منه الجراح قطعاً صغيرة.. كان قلبى على شكل قارة إفريقيا.. كان سطحه يميل للون الوردى والأصفر. وقد قلت لنفسى إن الجزء الأصفر لابد وأن يكون دهوناً أو شيئاً من هذا القبيل.. ورأيت أيضاً جزءاً كبيراً ناحية اليمين أو اليسار أعمق مما حوله».

كان هذا الوصف المطول مطابقاً لما جاء فى التقرير الطبى الذى قرأه سابوم.

قصت إحدى السيدات (الحالة رقم ٧٠) بدقة تفاصيل العملية التى أجريت لها فى العمود الفقرى، أما الحالة رقم (٥٢) فكانت لشاب ذكر أن الطبيب الذى سدد له لكمات فى الصدر لإنعاش قلبه دخل إلى غرفة العناية المركزة – على عكس زملائه – دون أن يضع فى قدميه الحذاء المعقم الخاص بغرفة العمليات.

شعر مايكل سابوم تدريجياً بأنه بدأ رحلة بلا عودة بعد أن أخذت معتقداته القديمة واعتراضه على تجربة الاقتراب من الموت تنهار الواحدة تلو الأخرى..

والآن بعد عام ونصف من الدراسة والبحث يخشى وقوعه ضحية لخدعة كبرى. فالدكتور رايموند مودى ليس دجالاً.. إنه كثيراً ما يتوهم ما يجرى حوله ثم يكتشف العكس.. حتى قاده فضوله لدراسة حالات «إن. دى. إى» التى حدثت تحت تأثير المخدر.

اعتاد الأطباء أن يذكروا فى تقاريرهم أن المرضى يفقدون وعيهم أثناء الجراحة بسبب التخدير الكلى، ولكن الواقع أن بعضهم يدرك جيداً مايحدث له.. وإن كانت ذكرياتهم عن الجراحة لاتمت بصلة لحالات «إن. دى. إى» .إنها ذكريات بشعة مختلطة بكوابيس وأضغاث أحلام يشعر فيها الفرد بأنه محصور داخل جسده، عاجز تماماً عن الحركة أثناء إجراء الجراحة. وتحتفظ تلك الفئة برهبة الموت التى تتزايد بدلاً من أن تختفى. إن أصحابها لا يشاهدون شيئاً وإنما يسمعون فقط ما يجرى حولهم على عكس حالات الهلوسة الذاتية التى يؤكد أصحابها قدرتهم على رؤية الأشياء بدقة دون الاستماع إلى الأصوات.

فى نهاية السنة الثانية من الدراسة وفى محاولة يائسة لفهم هذه التجربة الغريبة توصل سابوم إلى استنتاج نفسى بسيط وهو أن أصحاب تجربة الهلوسة الذاتية هم عادة المرضى الذين يتم حجزهم فى المستشفيات كثيراً.. وبالتالى فهناك احتمال أن تكون معرفتهم بعملية إنعاش القلب وقدرتهم على وصفها قد تجمعت لديهم من المعلومات الطبية التى عرفوها خلال إقامتهم بالمستشفى.

قرر سابوم أن يتأكد من هذا الاستنتاج فاختار خمسة وعشرين من مرضى القلب نجا معظمهم من الموت (دون أن يمروا بتجربة إن. دى. إى).. وطلب منهم أن يتخيلوا إصابتهم بأزمة قلبية ويحكوا له كيف تتم عملية إنعاش قلبهم، كانت النتيجة أن ثلاثة وعشرين رواية اشتملت على أخطاء جسيمة منها على سبيل المثال قول أحدهم بأنه أثناء عملية الإنعاش انتزع الطبيب قلبه بكلتا يديه وأمسك به ليدلكه!. وهكذا ارتكب معظمهم أخطاء واضحة لم تظهر فى أى رواية لأصحاب تجربة «إن. دى. إى» ثلاث روايات فقط لم تتضمن أى

أخطاء ولكنها كانت مختصرة جداً بحيث لم تذكر أى تفاصيل عن جهاز تدليك القلب.

أكد هذا الاختبار أن حالات «إن. دى. إى» تتميز عن غيرها.. ولكن ألا يمكن أن تكون رؤياهم أثناء التجربة مجرد حلم؟!

وجه سابوم وسارة هذا السؤال لهم جميعاً وكانت الإجابة بالنفى.

قال ميكانيكى عجوز من ميامى:

«أثناء الحلم أشعر بأننى شخص آخر، أما خلال التجربة فقد كنت نفسى ولا أحد غيرى، وقد رأيت الناس بمنتهى الوضوح مثلما أراك الآن يا دكتور!».

كانت هناك فكرة تلاحق سابوم وتزعجه.. لماذا لم يتنبه أحد زملائه لهذه الظاهرة؟. لابد أن هؤلاء العائدون لا يجرؤون على قص تجاربهم أمام الآخرين.. عندما عاد سابوم إلى مذكراته اكتشف بالفعل أنه كان فى معظم الحالات المستمع الأول الذى جرأ العائدون على التحدث إليه.

فى إحدى الحالات ذكرت سيدة شابة أنها لم تخبر زوجها عن شىء من تجربتها خوفاً من أن يحتجزها فى مصحة نفسية متوهماً أنها فقدت عقلها. واقتنع الطبيب أن المنطق يقر تصرف الزوجة وكذلك الزوج فى حالة معرفته بالأمر، إنه يتذكر صدمته عند قراءته لكتاب رايموند مودى لأول مرة، بل إنه – قبل وقت قصير – لو علم بقصة هذه المرأة لنصحها بالخضوع لعلاج نفسى سريع.

قبل مغادرة فلوريدا إلى أطلنطا عقد سابوم مؤتمراً فى كلية الطب أعلن فيه أبحاثه حول هذه التجربة، ووزع استمارة أسئلة على الحاضرين وهم مجموعة من الأطباء والممرضات، كان يريد أن يعرف مدى معلوماتهم عن ظاهرة «إن. دى. إى» وذكر عشرة فقط بينهم اثنان من الأطباء من خمسة وتسعين شخصاً أنهم لاحظوا شيئاً من هذا القبيل. ولكن لم يستطع أحدٌ منهم إلقاء الضوء على هذه الظاهرة.

وتأكد سابوم أن الغموض لازال يحيط بتلك التجارب فقرر اتخاذ خطوة جديدة للتعريف بها عن طريق نشر أبحاثه.

كان نشر تقرير حول هذا الموضوع الدقيق مخاطرة كبرى.. فهو يتناول حالة أشخاص تضاعفت لديهم الرغبة فى الحياة، وفقدوا رهبتهم من الموت بعد تجربة غريبة.. فتحولوا - كما يقولون - إلى أشخاص جدد يمكنهم تحديد الأشياء الهامة بالنسبة للإنسان، مثل الحياة والتفاصيل اليومية وحرية التحول أو التغير وحسن المعاملة. وأيضاً التغاضى عن توافه الأمور مثل الطبقة الاجتماعية والمظاهر والمادة وتوزيع الأدوار فى الحياة، لقد لمس سابوم بنفسه تغير سلوكهم، فمنهم من توقف عن شرب الخمر، ومنهم من ترك مهنته إلى عمل آخر، أو اشترك فى جمعيات خيرية كرجال إنقاذ أو ممرضات، وعلى النقيض تماماً فإن الناجين من الموت الذين لم يمروا بتجربة «إن. دى. إى» لم تتغير حياتهم.

تأكد سابوم من أهمية دور الفريق المعالج لهؤلاء الأشخاص الذين يتأزمون نفسياً إذا ما أنكر عليهم أحد تجربتهم، واتهمهم بالجنون أو نصحهم بالحاجة الملحة للعلاج النفسى.. هنا يقع العبء على كاهل المعالجين من أطباء وممرضات.. فمن واجبهم أن يتعاملوا بصدر رحب مع أصحاب الرؤى الغريبة وأن يستمعوا إليهم جيداً.

فى إحدى الحالات، خرج رب الأسرة من تجربة «إن. دى. إى» وقد سيطر عليه إحساس قاتل بالذنب.. فقد كان خلال التجربة يشعر بسعادة لوجوده فى رحاب ذلك النور الباهر ويرفض العودة إلى جسده المادى ولكن هاتفاً بداخله ذكره أن أطفاله الصغار يحتاجون إليه إذا ما قدر له أن يعود للحياة، وظل الأب يقاوم العودة ويحاول البقاء خارج جسده، ولكن الأمر ليس بيده.. فلم تحن ساعته بعد.. ومنذ استرد الأب وعيه وهو يعانى من الشعور بالذنب بسبب محاولته ترك أطفاله فى الحياة بلا سند أو عائل.

لقد بدت تجربته غير منطقية، فلم يشأ أن يتحدث عنها لأحد مما زاد حالته سوءاً، حتى جاء اليوم الذى وجد نفسه فيه بمحض الصدفة ضمن العينة العشوائية التى اختارها سابوم وسارة للدراسة. وعندما تأكد الأب من أن حالته ليست فردية كما كان يعتقد، وأن الباحثين يوليان تجربته اهتماماً دون السخرية منه، تفجرت بداخله فجأة طاقة كبرى، وخلال أسابيع تخلص الرجل من حالة الكآبة التى كانت تسيطر عليه، وبدأ يكتشف مُتع الحياة التى لم يكن يعرفها من قبل.. لقد عرف أخيراً كيف يستفيد من تجربته.

ووجد طبيب القلب الكثير من الحالات المشابهة التى ما كاد أصحابها يخرجون من عزلتهم حتى تخلصوا من مشاعرهم المتناقضة التى كانت تفصلهم عن الآخرين.. فازداد إصراراً على نشر تقريره حتى يدرك زملاؤه خطورة تجربة «إن. دى. إى» وأهمية الإنصات لأصحابها. وفى شتاء ١٩٨٠-١٩٨١ نشر سابوم التقرير وافياً بجميع المعلومات والجداول الإحصائية التى استطاع جمعها خلال دراسة متصلة استمرت عامين كاملين.

توقع سابوم اهتمام كبرى المجلات العلمية بتقريره وخاصة تلك التى تصدر عن جامعة (إيمورى) فى أطلنطا حيث برز فى عمله كأستاذ مساعد فى قسم القلب. وكانت الصدمة قوية حينما رفضت جميع الأوساط العلمية تقرير طبيب القلب بدعوى أن الموضوع الذى تطرق إليه غير علمى.. وذهل سابوم من المفاجأة.. فذهب لرئيس تحرير المجلة الطبية فى أطلنطا ليستفسر عن عدم نشر التقرير مؤكدا أنه لم يخالف القواعد أو الطرق العلمية المتبعة فى الأبحاث التقليدية, وأصر رئيس التحرير على أن الموضوع نفسه ليس علمياً ولايمكن ربطه بمجال العلوم.

وبعد أن تأكد سابوم من أن الحكم على تقريره قد أصبح نهائيا بدأ يتساءل: «هل أخطأت منذ البداية؟».. إنه لم يتناول فى تقريره أى خيالات تأملية أو حالات هذيان.. لقد اعتمد على شهود ووقائع محددة وترك للقارئ

الحرية الكاملة فى الحكم على هذه التجربة.. فالهدف من التقرير كان تعريف الجميع بهذه التجربة وليس التأثير عليهم.. لقد سمح لنفسه فقط فى نهاية التقرير بكتابة بعض التفسيرات التى صادفها خلال فترة البحث، وقد ظهرت معظم هذه التفسيرات بعد نشر كتاب رايموند مودى «الحياة بعد الحياة». كان سابوم يتساءل إن كان أحد سيكلف نفسه عناء قراءة هذه الدلائل الغريبة، ولكنه كان مضطراً لسرد الأدلة والبراهين المختلفة التى توصل إليها البحث.

كان رأى العالمين النفسيين «بلاشر» و«كاستنبوم» من جامعة ماساشوستس، إن تجربة «إن. دى. إى» مجرد خيالات عن الموت حدثت نتيجة نقص الأكسجين الذى يصل إلى مخ المحتضر وهو فى حالة الاختناق، وقد حذر العالمان الأطباء من الانسياق وراء بعض الأدعياء الذين يروجون لظواهر غريبة عبر وسائل الاعلام، ونبه البروفيسور بلاشر إلى ضرورة توخى الحذر من قبول أى معتقد دينى أو روحانى على أنه حقيقة علمية.

ردا على كلام الدكتور «بلاشر» كتب إليه سابوم خطاباً يحثه فيه على أن يكون حذراً بنفس الدرجة من الخلط بين الرأى العلمى فى مقاله والحقيقة العلمية. وعقب البروفيسور «بلاشر» بمقال عنيف على خطاب سابوم شرح فيه أن حالات «إن. دى. إى» تحدث فقط لأشخاص يعانون من أمراض نفسية وأن أى محاولة لإنكار هذا الرأى تندرج تحت بند عدم المسئولية والمجازفة بالحقائق العلمية.

اختلفت ردود فعل الأطباء حول تجربة الاقتراب من الموت، فسرها بعضهم على أنها مشابهة تماماً لما يحدث للمرضى تحت تأثير التخدير أثناء الجراحة، وهؤلاء – بعيداً عن الهذيان – سجلوا بدقة ما حدث لهم أثناء وفاتهم الطبية الظاهرية. لقد تكونت لديهم ذكريات عن تلك الفترة من خلال السمع، ثم ترسخت فى الذاكرة كذكريات بصرية، وكان سابوم نفسه ميالاً لهذا التفسير

حتى اكتشف أثناء دراسته للظاهرة أن الذكريات السمعية والبصرية تنتمى لحالات مختلفة تماماً عن بعضها البعض.

وهناك أطباء أكدوا أن الأمر لايزيد عن مجرد حلم يذكره العائدون من رحلة الموت.. فهناك بعض الأحلام التى تؤثر فى الإنسان لفترة طويلة وتظل ذكراها فى بعض الأحيان ملازمة له طوال حياته. وعلماء آخرون أرجعوا هذه الرؤى إلى نوع من الهذيان تسببه الأدوية المخدرة والمنومة حيث يرى بعض المرضى الأطباء يتحولون إلى رجال شرطة، وغرفة العمليات وقد أصبحت مكتب تحقيق.

فى ١٩ يناير ١٩٨٠ نشرت مجلة الأطباء البريطانيين «لانست» مقالاً عن التأثير القوى لمخدر اكتشف حديثاً. هو «بيتا أندورفين». قام الأطباء بحقنه فى النخاع الشوكى لأربع عشرة حالة سرطان تعانى من آلام رهيبة.. وكان له مفعول السحر، فقد توقفت معاناة هؤلاء المرضى لفترة تراوحت بين اثنتين وعشرين وثلاث وسبعين ساعة.

هذه المعلومة أكد من خلالها الدكتور لويس توماس مدير معهد «سلوان كيترينج» للسرطان بنيويورك أن التجارب التى يذكرها العائدون تسببها مادة مماثلة «للبيتا – اندورفين».. واستنتج – مثلما فعل من قبل العالم النفسى رونالد سيجل – أن تجربة الاقتراب من الموت من الجائز أن تصبح غير مؤلمة، بل ويمكن أن يراها البعض جميلة.

ولكن الإحساس المؤلم الذى يصاحب العائدين عند دخولهم فى جسدهم المادى مرة أخرى كان يؤرق سابوم ويدفعه للتساؤل: ما هذا الاندورفين الذى يتلاشى أثره سريعاً بمجرد عودة المحتضر لوعيه؟. وكيف يظل مفعول مخدر آخر مؤثراً لسنوات طويلة بعد تلك التجربة؟!

تعددت التفسيرات والمقترحات.. منها الكيميائية والتشريحية والاجتماعية. بل إن بعض الأطباء اعتقدوا أن المرضى المؤمنين فقط هم الذين تتراءى لهم هذه المشاهدات.

كانت المناقشات الجدلية على أشدها فى مجال علم النفس.. فالعائد من رحلة الموت لا يروى أكاذيب من وجهة نظر علماء النفس. إنه شخص صمد بقوة أمام صدمة مخيفة لا يستطيع العقل تصورها. فكيف يمكن لشخص ما أن يتخيل نفسه «ميتاً» وهناك شىء فى داخله يجعله فى وضع المتفرج أمام شاشة سينمائية؟!

يقول سيجموند فرويد رائد علم النفس: إن الموت الحقيقى هو الذوبان المطلق لهذا المتفرج ولصالة السينما التى يشاهد فيها تجربته – وذلك يعنى اللاعودة – لذلك فإن ذكريات العائدين الفائقة الوصف والتى تحمل رموزاً معينة يمكن تحليلها وربطها بالحياة. فالموت هنا لا مجال له.

وقد لفت نظر مايكل سابوم عالم نفسى يدعى «روسيل نوى» ظل مدة عشرة أعوام يدرس نفس الظاهرة، وكان تحليله لها ينحصر فى كلمة واحدة: ضياع الشخصية (وهو نوع من الاضطراب النفسى يشعر فيه الشخص بأن أحاسيسه ورغباته وأفكاره غريبة عنه).

كيف تختفى رهبة الموت ؟!

فى الجانب الآخر من أقصى الغرب الأمريكى وبالتحديد فى مدينة «أيوا» كان الطبيب النفسى «روسيل نوى» يبدى اعتراضاته على طريقة رايموند مودى ومايكل سابوم فى تناول ظاهرة «إن. دى. إى»، وكان هذا الأستاذ الجامعى المتخصص فى علاج حالات الصدمات النفسية والقلق الشديد يتعجب من سعيهما وراء اكتشاف خبايا تلك الظاهرة دون دراسة تفصيلية لأحدث ماتوصل إليه الطب والتحليل النفسى.

هل يجهل مودى وسابوم تطورات علم النفس منذ عام ١٨٩٠؟! أم تُرى لم يسمعا من قبل عن العقل الباطن ولغته الرمزية والغرائز المكبوتة داخله؟ ألم يشكا ولو للحظة واحدة بأن مشاهدات هؤلاء الناجين من الموت قد تنطوى على بعض الخدع المحبوكة؟ كيف إذن يضيعان الوقت فى جمع تلك الروايات المليئة بالهذيان دون أن يحاولا تفسيرها؟.. دارت جميع هذه التساؤلات فى عقل «روسيل» فهو لم يكن فى الواقع من ذلك النوع الذى يحكم بالفشل على جهود زملائه، ولكنه كان يحتج فقط على نقص خبرتهم فى هذا المجال رغم أنه يجهل مثلهم كيفية الوصول بهذه الدراسة إلى مرحلة الجدية والنضج!

لقد تحول روسيل نفسه إلى دراسة حالات «إن. دى. إى» بدافع الفضول بعد أن لاحظ أثناء علاجه لمرضى التوتر العصبى الذين يعانون من قلق شديد مدمر، أن منهم من يحاول أحياناً الهروب من محنته بالتحليق خارج جسده.. عندئذ يسيطر عليه شعور بالسلبية والبرود والانفصال عن الواقع كما لو أن الأمر يخص شخصاً آخر، بل إنه يزعم فى بعض الأحيان قدرته على رؤية نفسه من الخارج، وقد ثبت أن ذلك العلاج التلقائى للعقل الباطن يزيد الأمر سوءاً..

فعندما يرى هؤلاء المرضى أنفسهم فى صور غريبة عنهم تتضاعف حدة قلقهم واضطرابهم ويحتاجون لطرق علاج قوية وفعالة حتى تخف معاناتهم.

هذا الازدواج الذى يشعر به هؤلاء المرضى لا يوجد له تعريف آخر سوى «ضياع الشخصية» وهو مصطلح تخصص فى دراسته روسيل نوى وكان يشرح لطلبته فى محاضرات علم النفس الحالات المرضية المختلفة التى يمكن أن يظهر فيها ضياع الشخصية.. فبالإضافة لمرضى التوتر العصبى الشديدى القلق، قد يحدث ازدواج فى شخصية الفرد إذا ما تعرض لانفعال شديد أو الانعزال الحسى أو تناول جرعة زائدة من المخدرات.

ولأن مهمة روسيل الأساسية هى علاج المرضى، فلم يكن يهتم بهذه الحالات المختلفة، وإنما ركز جهوده فى إحدى حالات ضياع الشخصية وهى أصحاب الحوادث. فالأشخاص الذين أفلتوا من حادثة مروعة أو كارثة يعانون عادة من اضطرابات نفسية مشابهة لحالات القلق الشديد.. وسواء أصيبوا بكسور أو نجوا دون إصابات فإنهم يتصرفون بطريقة غريبة ويسردون روايات عجيبة بعد ذلك. كانت الأمور تسير بصورة طبيعية حتى وقعت لهم حادثة رهيبة مثل انحراف سيارة أو خروج قطار عن القضبان أو انهيار سقف الحجرة أو الغرق فى بحيرة.. ثم فى أقل من ثانية تحدث المعجزة ويظهر المنقذ المجهول أو شىء ما يتعلق به الشخص فينجو فى اللحظة الأخيرة. بعد تلك الحادثة يصبح هذا الشخص مختلفاً عن ذى قبل.. من الصعب الحكم عليه بأنه مريض ولكن يسيطر عليه نوع من الهدوء الغريب.. إنه يحتاج للعلاج.. لذلك فإن المستشفى يقرر دائماً للناجين من الحوادث الكبرى علاجاً نفسياً بالإضافة لعلاج الإصابات، ومن هذه النقطة بدأ مجال عمل «نوى» يتسع ليشمل مصابى الحوادث بعد أن كان قاصراً على مرضى التوتر العصبى الشديد.

فى نهاية الستينات دار هذا الحوار بين الطبيب النفسى النوبتجى فى المستشفى وبين أحد مصابى الحوادث.

– كيف حالك اليوم؟ أعتقد أنك أقل توتراً

– على ما يرام يا دكتور.

– إنك تعرضت لحادثة بشعة.. علمت أن سيارتك قد تهشمت تماماً

– نعم.. لقد نجوت بأعجوبة!

– اطمئن .. كل شيء سيصبح على مايرام.. ولكن لا تندهش إذا ما تعرضت لصدمة عصبية مضادة.. إنه أمر طبيعي.

– وكيف سيحدث ذلك يا دكتور؟

– إن الصدمة تختلف باختلاف الأشخاص.. لقد أعطيتك أدوية تريحك إلى حد كبير.. ولكن إذا شعرت بأى تعبٍ فلا تتردد فى الاتصال بى.

– «شكرا يادكتور.. ولكننى لم أشعر أبداً بمثل هذا التحسن.. أتعلم أن هذه الحادثة كانت عجيبة فعلاً.. إننى..»

ولم يستمع الطبيب النفسى لبقية كلام الشاب وذهب مسرعاً.. وفى اليوم التالى أصر المصاب الذى كان يتمتع بنفس الحيوية الغريبة على رواية الحادثة. فجلس الطبيب يستمع إليه معتقداً أنه يهذى.

قال المريض: إنه فى اللحظة التى رأى فيها السيارة النصف نقل تنقض فوقه، شعر بأنه خرج من جسده ومر عندئذ بأغرب تجربة فى حياته. دون الطبيب هذه الخيالات وسرعان مانسيها لأنه لم يجد فائدة من تذكرها.

بمرور الوقت عثر الطبيب النفسى على حالة ثانية من الهذيان التى تعقب الإصابة فى حادث.. ثم حالة ثالثة.. مصادفة غريبة فعلاإذهب الطبيب ليستشير أستاذه الذى قال له: «إنها ظاهرة معروفة.. حدوث صدمة ثم هذيان ثم ضياع الشخصية.. إنه المجال المفضل لدى بروفيسور «نوى».

ذهب الطبيب الشاب لروسيل نوى الذى يعمل منذ عشر سنوات بالطب النفسى وروى له خيالات المصابين الثلاثة.. ولم يندهش نوى.. فتلك الظاهرة

قد أشار إليها بعض رواد علم النفس ومنهم «أرلو» الذى أوضح كيف تسبب الصدمة الخيالات لدى المصاب وتؤدى به إلى حالة حقيقية من ضياع الشخصية. إن نوى نفسه لم يدرس حالة واحدة من هؤلاء المصابين ولكنه صادفها كثيرا أثناء تعامله مع مرضى التوتر النفسى.

إنها ظاهرة غريبة.. فبعض المصابين يظهرون جميع أعراض ضياع الشخصية فيما عدا واحداً شديد الأهمية وهو الشعور بالقلق، فقد تبين أن الذين تنتابهم حالات القلق هم أصحاب الحوادث البسيطة التى لم تتعرض فيها حياتهم لخطر حقيقى.. بينما هؤلاء الذين أيقنوا تماماً أنهم ملاقون حتفهم دون أمل فى النجاة يظهرون – ويا للغرابة! – هدوءاً وسكينة.

لم يصدق نوى فى البداية مشاعر هؤلاء المصابين فمرحلة ضياع الشخصية لا يمكن أن تنفصل علمياً عن القلق.. إنه خروج عن المألوف. لذا قرر دراسة بعض الحالات بنفسه. ومرت عدة أشهر قبل أن يعترف نوى لنفسه بوجود تلك الحالة الفريدة من الصفاء الذهنى والسكون العميق بين الذين بلغوا بالفعل مرحلة ضياع الشخصية، ولكنه استطاع بخبرة الطبيب النفسى أن يكشف حالات السكون المزيفة.

ولأن ظاهرة السكون المزيفة غير المتوقعة بدأت تتداخل مع النمط التقليدى لحالة ضياع الشخصية، قرر نوى دراستها بشكل مكثف، فقام بعمل فريق بحث من الطلبة لدراسة الآثار النفسية للصدمات على الفرد.. وتجمعت لديه عشرات الحالات التى تؤكد هذه الظاهرة الغريبة.

وبدأ نوى يتحاور شخصياً مع هؤلاء المصابين ووجد نفسه متشعباً فى أكثر من بحث ميدانى، فهو لا يعنى فقط بعلاج مرضى القلق الذين يعانون من ضياع الشخصية ولكنه أيضاً يعنى بمصابى الحوادث الذين سيطر عليهم السكون وضياع الشخصية معاً. وكانت الفئة الثانية هى التى أثارت فضول الطبيب فقرر دراستها على نطاق أوسع.

إن مصابى الحوادث المروعة يلتقون جميعاً فى نقطة بداية واحدة. لقد اعتقدوا تماماً أن ساعتهم قد حانت أثناء تلك الحادثة، وأنه لا مفر من الموت، ولكن فى لمح البصر تدخلت المعجزة الإلهيةلإنقاذهم وكأنما الزمن قد توقف.. فلم تحدث صدمة الارتطام التى كان من المفروض أن تودى بحياتهم.

يقول أحد المصابين: «لم أسقط كما كنت أتوقع ولكنى وجدت نفسى أطير.. لقد كنت شديد الهدوء.. والطبيعة من حولى مضاءة بمختلف الألوان.. والذكريات القديمة تتراءى لى.. لقد رأيت نفسى فى سن الرابعة ألهو فوق العشب الأخضر بدراجتى الحمراء.. ثم فى العاشرة مع الفتاة الجميلة التى كنت معجبا بها.. ثم..»

زعم بعض مصابى الحوادث أن ذكريات حياتهم قد مرت بكامل تفاصيلها أمام أعينهم كأنها شريط سينمائى.. حياة بأكملها فى تلك الفترة الزمنية القصيرة جداً التى وقعت فيها الحادثة.. وكأن الشريط يدور بطريقة خاصة ليعرض رحلة سنوات العمر فى خمس ثوانى فقط يتولد خلالها انطباع لدى الفرد بأنه «يرى نفسه من الخارج».

ويتعجب (نوى) من ذلك التعبير.. إنها حالة مرضية مؤكدة ونوع محدد من ازدواج الشخصية.. ويسأل إحدى مريضاته مزيداً من التوضيح فتقول:

«من الصعب شرح ما حدث يا دكتور.. ولكن كل شىء كان واضحاً بالنسبة لى.. لقد رأيت جسدى من على بعد يدور مع الموتوسيكل وأدركت تماماً أننى سأموت.. ولكنى فجأة شعرت بأن الأمر يتساوى عندى وأننى فى حالة نفسية جيدة وتولد لدى انطباع بأننى جزء من الطبيعة المحيطة بى».

تأكد «نوى» من خلال حديثه مع المصابة الشابة أنها مرت بحالة واضحة من ضياع الشخصية وهو أمر غير مألوف.. فعادة ما تكون هذه الحالة مشوشة أو مصحوبة بهذيان مخيف أو خيالات بشعة فيظهر المريض بعض الأعراض دون غيرها.. قد يبدو سلبياً دون أن تظهر عليه الازدواجية، أو يرى جزءاً من

جسده منفصلاً عنه مثل وجهه أو يده اليمنى. وعلى النقيض تظهر الصورة واضحة وكاملة لدى مصابى الحوادث.

استطاع روسيل نوى وطلابه أن يحللوا بعمق مائتين وخمسة من قصص مصابى الحوادث الذين مروا بمرحلة ضياع الشخصية.. وتوصلوا إلى ستة وعشرين متغيراً تم جمعهم فى ثلاثة عناصر:

العنصر الأول، (ضياع الشخصية): يحتوى على إحدى عشر متغيراً. فالشخص لا يشعر بأى انفعالات (فى ٦٩٪ من الحالات)، ويشعر ٦٣٪ من أصحاب هذه الحالات بأن وعيهم منفصل عن أجسادهم، ويؤكد ٦١٪ منهم وجود حاجز بينهم وبين العالم، بينما تصر ٣٥٪ من الحالات على اختلاف رؤيتها لعامل الزمن بعد الحادثة.

العنصر الثانى (حدة الانتباه والتيقظ): وهو معاكس تماماً للعنصر الأول رغم أنه ملازم له. هذا العنصر يتضمن ستة متغيرات فى جدول «نوى»: سرعة تفكير الشخص بدرجة لم يسبق لها مثيل قبل وقوع الحادثة (٦٩٪ من الحالات)، أو الانتباه الشديد للأصوات والألوان والأشكال وجميع الوسائل الحسية (٦٢٪ منهم)، أو سرعة رد الفعل الحركى للجسد بصورة غير متوقعة (لدى ٤١٪ منهم).

العنصر الثالث: وهو الأكثر غرابة وقد أطلق عليه نوى **«العنصر الروحانى»** ويتضمن تسع متغيرات، ويشعر الشخص فيه بنوع من الألفة لم يعهده منذ وقت طويل (٧٤٪ من الحالات)، أو يرى الشخص حياته تمر كلها أمام عينيه (٦٩٪ منهم)، ويتملك ٦٨٪ منهم شعور بالنشوة والسعادة بينما يعتقد ٦٢٪ من الحالات أنها رؤية فريدة.

إن التقدم العلمى يسير ببطء شديد.. هكذا لاحظ روسيل نوى عندما بدأ يبحث عن مراجع تساعده فى دراسته، فقد وجد ستة فقط من الأطباء النفسيين

يدرسون هذه الظاهرة مثله رغم أن «التحول النفسي لمصابى الحوادث الذين واجهوا الموت» موضوع متداول فى علم النفس منذ أكثر من قرن من الزمان.

ففى القرن الماضى ظهر كتاب بعنوان «مذكرات حول الموت بعد السقوط» اعتبر فى ذلك الوقت فى سويسرا كتاب عام ١٨٩٢ نظراً لأهمية وكثرة مبيعاته، قام بتأليف هذا الكتاب وجمع مادته العالم الجيولوجى السويسرى الألمانى «ألبير هايم» – الذى اشتهر بدراسته لتضاريس الجبال – وذلك بعد سقوطه من فوق جبال الألب. كان السقوط يعنى الموت المؤكد، ولكن فجأة حدث مالم يكن متوقعاً: النجاة ومعها إحساس غريب بنشوة مذهلة، وقد دفعه هذا الشعور الفائق الوصف فيما بعد إلى سؤال سكان المنطقة من متسلقى الجبال عن مرورهم بحوادث مشابهة، وقد وجد بالفعل كثيراً من الحالات التى مرت بنفس ظروفه فقرر جمعها فى هذا الكتاب الذى أحدث ضجة عند صدوره.

لم يكن الجيولوجى «ألبير هايم»متخصصاً فى الطب النفسى ولكنه بحق وضع يده على ظاهرة هامة وهى ظاهرة الاقتراب من الموت. وأنها لمصادفة غريبة أن يكون أيضاً سويسرياً ألمانياً من سكان الجبال مثل إليزابيث كوبلر – روس.

يقول الجيولوجى عن حادثة سقوطه:

«فى بداية السقوط أدركت أننى أحلق فى فراغ وانتظرت الصدمة القاتلة وتعلقت أصابعى المنقبضة بالثلوج المتراكمة فوق الجبل، كنت أحاول أن أبطئ من معدل السقوط، ولم أشعر بأى ألم رغم أن أصابعى قد جُرحت، وما كاد رأسى وظهرى يحتكان بالصخور حتى شعرت بالصدمة وسمعت ضجة «صماء» وأنا أهوى إلى أسفل.

ولكنى لم أشعر بالآلام إلا بعد عدة ساعات، وبدأ طوفان من الأفكار يلاحقنى أثناء السقوط ولكن مادار فى رأسى خلال عشر ثوانى يحتاج لكثير من الوقت لوصفه.. كانت أفكارى واضحة ومترابطة تختلف تماماً عن تلك

التى تتلاشى سريعاً فى الأحلام.. فى البداية تراءت لى الحلول وقلت لنفسى: إننى أسقط عمودياً على الأرض طالما أنى لاأستطيع رؤية سفح الجبل أسفل جسمى.

إن مصيرى سيحدده وجود الثلوج من عدمها، فإذا وجدت فإنها ستتجمع لتكون بساطاً يحمى جسدى وفى هذه الحالة سيكون هناك أمل فى النجاة من الموت، أما إذا لم توجد أى ثلوج أسفل الجبل فسأسقط فوق الصخور مباشرة وبهذه السرعة سيكون مصيرى بالطبع هو الموت المحتوم.

لم أفقد الوعى بعد تلك السقطة.. فكرت فى ضرورة أن أسكب فوق لسانى بعض قطرات الخمر من الزجاجة التى أحملها معى، ولا بد لى أيضاً أن أتمسك بمعولى.. فقد يكون ذا فائدة.

وأحكمت قبضتى على المعول وفكرت بأن أخلع نظارتى حتى لايجرحنى الزجاج المتطاير ولكننى عجزت من شدة الصدمة والاهتزاز عن رفع يدى.. فلم يعد لدى أى قوة.. ثم تذكرت من يتبعوننى، وقلت لنفسى بعد أن أسقط نهائياً وسواء جرحت بشدة أم لا فعلىَّ أن أنادى زملائى سريعاً حتى أطمئنهم أن كل شىء على ما يرام، وبذلك يستطيع أخى وأصدقائى الثلاثة أن يتمالكوا أنفسهم ويهبطوا حيث أرقد.

وفى اللحظة التالية.. تذكرت أننى لن أستطيع أن ألقى أولى محاضراتى فى الجامعة والتى يحين موعدها بعد خمسة أيام. وتخيلت كيف سيستقبل المقربون نبأ موتى، ثم توالت أمامى مراحل حياتى فى سلسلة من الصور وكأنها عرض سينمائى لرواية كنت فيها البطل الأول، وبدا لى ما رأيته وقد تجمل بنور سماوى جميل بدون قلق أو ألم.. حتى تجاربى المأساوية تذكرتها جميعاً دون أى شعور بالحزن ودون أن يتخللها صراعات أو توتر.. بل على النقيض، كان الحب هو المهيمن عليها.. أفكار سامية ومتناسقة كانت توحد الصور الفردية وتهيمن عليها فى ظل موسيقى ساحرة تغمر نفسى بهدوء شامل.

لقد كنت محاطاً بسماء زرقاء رائعة مرصعة بسحب رقيقة وردية وبنفسجية اللون، كنت أنحدر فى هدوء دون ألم، ورأيت نفسى أسقط فى الهواء ويمتد تحتى بساط من الثلج، وتلاشت أفكارى وملاحظاتى وأحاسيسى، ثم استمعت إلى ضجة «صماء»، وتوقفت عن السقوط».

لم يفهم روسيل فى البداية مضمون الرواية ولكنه بعد سنوات من البحث أدرك عمق التجربة.. فهؤلاء الأشخاص جميعاً أصيبوا بالرعب والخوف بدرجة كبيرة بعد أن رأوا الموت ينقض عليهم بسرعة مذهلة. أما الفئة الثانية التى لم تواجه هذا الإحساس بالهلع حتى لو كانت إصابة أفرادها خطيرة فإنها لم تمر بتجربة ضياع الشخصية، هذه الفئة أظهرت وقت الحادث أداء دفاعياً ميكانيكيا خارقاً أطلقه اللاوعى لإنقاذها من تلك الشدة، فجاء رد الفعل السريع أمام المواجهة غير المتوقعة للموت.

إن الأمر أشبه بأكذوبة كبرى بسبب سرعة تلاحق الأحداث وربما عدم منطقيتها، ففى أقل من الثانية انفصل الشخص المصاب عاطفياً عن الواقع وكأن هذا الانفصال درع يحيط به لحمايته، فقد ركز كل طاقته فى مضاعفة سرعة ردود فعله وحدة حواسه حتى يستطيع النجاة من ذلك الموقف المهلك (طبقاً لتفسير العالمين «روث» و«هاربر» المتخصصين فى علم وظائف الأعصاب).. وباختصار فإن الجزء الانفعالى من وعى المصاب اختفى ليفسح المجال أمام الجزء الحسى الحركى لإنقاذه. وهكذا فإن الشخص الذى يسقط من الطابق الثامن بأحد المبانى قد يُظهر فجأة مهارة تشبه براعة القرود فى التسلق ويتعلق بأى شىء حتى يصل إلى الأرض.

ولكن الأمر ليس بهذه السهولة.. إن هذا النشاط المتزايد للجزء الحسى الحركى يعيد علاقة هذا المخادع البائس بالواقع.. فهو يدعى الموت ولكنه يرى جيداً وفى نفس الوقت كل ما يحدث حوله. إنه لايستطيع شيئاً وهو يسقط من الجبل.. حتى الطاقة الهائلة التى تتولد لديه من الانفصال العاطفى لا يمكن

أن تؤدى إلى إنقاذه ولا حتى إلى إعادة رهبة الموت إليه.. والسبب أن العقل الباطن يقوم بمهمة أخرى.. فهو يتحول إلى صالة عرض سينمائية ليعرض حياة الشخص – أثناء سقوطه – كاملة وفى عرض متميز وبالألوان!

سينما غريبة.. تارة تتوالى فيها الصور بنفس تسلسلها الزمنى، وتارة أخرى فى اتجاه معاكس، ولكنها فى جميع الأحوال تتداخل بطريقة تبعث على الفضول، لذا عكف «نوى» على البحث فى أعمال الدكتور «باتلر» وهو طبيب نفسى درس هذه الظاهرة لدى المسنين.

فالأشخاص المسنون يمرون فى بعض الأحيان بحالات خاصة جداً من الوعى والإدراك يرون خلالها أجزاء كاملة من حياتهم تنساب أمام أعينهم. وقد فوجئ «باتلز» بالتأثير الإيجابى لهذه العروض الدنيوية من حياة البشر، فهى تضفى عليهم السكينة والهدوء كما لو أن تلك الظاهرة أتاحت لهم تقييم حياتهم من جديد.

وجد نوى نفس الشىء لدى الناجين من حوادث مروعة بعد أن شاهدوا إعادة عرض مراحل حياتهم.. فقد ساعدهم ذلك – على حد قولهم – على تقييم جميع تجاربهم السابقة بل وإيجاد قيمة جديدة للأشياء وتحديد أهميتها فى تسلسل مختلف عن ذى قبل.

كيف يحدث ذلك؟ كانت الإجابة الأولى التى تبادرت إلى ذهن نوى تؤكد أن الشخص بعد أن يكاد يفقد حياته يزداد شعوره بطعم الحياة وقيمتها، وبالتالى فإن نظرته للأمور تتغير ويعيد ترتيب حياته من جديد، ولكن هل يحدث هذا التحول بسبب مواجهة الإنسان المباشرة للموت أم كنتيجة لتجربة ضياع الشخصية التى تعقب هذه المواجهة؟

حول هذه النقطة تركزت إحصائيات نوى، فتبين أن بعض التحولات النفسية المذهلة حدثت للأشخاص الذين ظنوا أنهم ملاقوا حتفهم رغم أنهم فى الواقع لم يتعرضوا لهذه المخاطر الجسيمة.. وفى المقابل فإن الذين تعرضوا لخطر

الموت دون أن يدركوا ما كاد يحدث لهم (على سبيل المثال شخص شارد تفادى سيارة نقل ضخمة كادت تصدمه) لا يتذكرون أى شىءولا يحدث لهم أى تغيير، وبالتالى فإن العامل المحرك وراء هذه الظاهرة هو الخوف أو بمعنى أدق الرعب من مواجهة الموت.

كان من الممكن أن تقف الأمور عند هذا الحد رغم غموضها.. فقد تم حصر الظاهرة وبدأ روسيل نوى ينشر العديد من المقالات فى المجلات الطبية الأمريكية المتخصصة فى علم النفس.. ولكن أثناء حواره مع أحد مصابى الحوادث المروعة فوجىء به يقول: «لم أوشك على الموت يا دكتور.. لقد كنت ميتاً بالفعل» ولم يصدق نوى كلام الرجل رغم إصراره على رأيه.

تناقش نوى مع طلابه فى هذه الحالة.. وهنا تكرر من جديد ما حدث مع رايموند مودى.. فقد أكد اثنان من الطلبة معرفتهما بحالات مشابهة..

وهكذا بدأت رحلة نوى وفريقه لاكتشاف تجربة الاقتراب من الموت والتى مثلت بالنسبة لهم حالة خاصة جداً من ضياع الشخصية.

ولكن ما هو وجه الاختلاف بين هذه الحالات وغيرها؟.. إن أفراد هذه الفئة قد توفوا عضوياً وليس نفسياً فقط بعد توقف وظائف جسدهم عن العمل وكان معظمهم شديدى المرض والوهن حتى أن الأطباء المعالجين اعتبروهم موتى، أو على وشك الموت (بأزمة قلبية أو غيبوبة... إلخ). وكانت تلك اللحظات الحرجة التى شهدت فيها الحالات التسع والعشرين – التى جمعها نوى – تجربة ضياع الشخصية.

إن العقل الباطن (الذى يتجاهل دائما الموت طبقاً لنظريات فرويد) يخدعنا عندما يجد نفسه مدفوعاً إلى ما لا يطيقه فيتصور الشخص نفسه ميتا ولكن فى أعماقه صوت يقول دائماً «أنا موجود» مؤكداً أن شيئاً لم يحدث له فهو يدعى استعراض ما بعد لحظة الموت بكامل إرادته ورغبته.

كانت تجربة «إن. دى. إى» تمثل لغزاً جديداً بالنسبة للدكتور نوى.. لم تكن المشكلة التى تواجهه هى الذكريات الغريبة التى يرويها الناجون من الموت الطبى – لأنه لا يصدقها – ولا حتى تلاشى الخوف من رهبة الموت.. ولكن السؤال الذى كان يلح عليه دائماً هو كيف يذكر الغائبون عن الوعى – عندما يغشى عليهم أو يكونوا تحت تأثير التخدير فى عملية جراحية – إنهم فى تلك اللحظات الحرجة مروا بتجربة ضياع الشخصية؟ وهل يستلزم ذلك إعادة البحث فى هذه الظاهرة من جديد؟.

كان هذا التشتت يؤرق نوى.. فقد ظهر فى ذلك الحين من عام ١٩٧٥ كتاب مودى وقرأه نوى، وذهل مما جاء على لسان الحالات المذكورة به، وتساءل: هل مودى طبيب غير جاد فى أبحاثه.. أم أنه شرير.. أو ساذج؟ إن الموضوع قد أصبح خطيراً مع وجود محاولات لتقديم مادة مغرية للجمهور دون مراعاة القواعد العلمية. دفع هذا الكتاب نوى إلى حذف جميع حالات إن. دى. إى من العينة التى اشتملت عليها إحصائياته، ليس من باب التخاذل ولكن توخياً للحذر.. فقد وجد التشتت غير ذى فائدة فقرر التركيز على الخوف من الموت وليس الموت الطبى أو حالات الغيبوبة.

وبدأت الوقائع تؤكد له صحة تراجعه.. فضياع شخصية أصحاب التجربة لم تكن متماثلة فى جميع الأحوال.. فقد لوحظ تضخم العنصر الثالث أو «العنصر الروحانى» وتفوقه على غيره، فتزايد حدة الإنتباه والتيقظ والانعزال العاطفى رغم تواجدهما بصفة دائمة، إلا أنهما تراجعا للوراء أمام العنصر الروحانى، وهكذا انقلب النموذج الأمثل لضياع الشخصية رأساً على عقب، فأيقن نوى أهمية حذف هذه المعطيات المشوشة عن حالات إن. دى. إى فى جداوله الإحصائية.

ولكن الطبيب النفسى لم يترك الأمر كلية، فقد كان دائم التساؤل حول معنى تلك الظاهرة التى قادته الظروف لدراستها. ليس غريبا أن يتسبب العقل

الباطن أو اللاوعى فى حدوث أشياء كثيرة عندما يتعرض الإنسان لصدمة ما.. ولكن كيف يمكن تفسير بعض التحولات النفسية الجذرية والتى تظل أبدية فى بعض الأحيان فى حياة من عرفوا رهبة الموت الحقيقية؟!. كان ذلك أمراً غير مفهوم بالنسبة « لنوى» فتفرغ كلية لدراسة هذه الظاهرة، وتحاور مع ٢١٥ شخصا من أصحاب التجربة حول التحولات التى لحقت بحياتهم، ثم نشر نتائج أبحاثه عام ١٩٨٠ فى مجلة «سايكترى».

كان القاسم المشترك فى ذلك التحول هو تراجع الرهبة من لقاء الموت بدرجة كبيرة حتى أن ٤١٪ من الأشخاص الذين استجوبهم نوى أكدوا أنهم تخلصوا نهائيا من هذا الخوف.

تقول إحدى الطالبات: «إن الموت بالنسبة لى أصبح كأى احتمال وارد، ومنذ وقعت لى تلك الحادثة وأنا أذكر الموت فى مواقف عديدة.. عندما أكون مريضة.. أو أقود سيارتى.. ولكن الموت لم يعد يخيفنى بل على النقيض فإنه يمثل الآن جزءاً من حياتى مثل الميلاد والمعاناة والحب...».

ويقول أحد متسلقى جبال الألب: «منذ الحادثة التى تعرضت لها وأنا لاأخاف مطلقاً من الموت أو مواجهة الحياة.. لم أعد أخشى الاقتراب من الناس والتودد إليهم وإقامة صداقات معهم، فقد ازددت جرأة فى النواحى الاجتماعية».

أقلية صغيرة فقط هى التى لم تتأثر بالحادثة التى مرت بها، ولكن معظم الحالات أبدت ازدواجاً متناقضاً: فعندما توقفوا عن مقاومة الموت فى اللحظة التى زهدوا فيها الحياة.. حدثت تجربة ضياع الشخصية وفقدوا رهبتهم من الموت، وتغير سلوكهم كلية فى مواجهة الخطر، وبعدها أطلقوا العنان لعواطفهم – كما يقولون – دون أى سيطرة أو تخطيط.

تقول سيدة من مدينة آيوا: «إن مواجهتى مع الموت فجرت لدى طاقة كامنة لتحطيم أى قيود، فأصبحت أحيا يوماً بيوم.. ببساطة تغير كل شىء. وأشعر أحياناً بحيوية متفجرة تجتاحنى».

وتقول امرأة أخرى: «لقد كنت من النوع الشديد الجبن.. كنت لا أجرؤ على النظر فى الفراغ، أو الاقتراب من شاطىء بحيرة، وكان القلق ينهشنى خوفاً على أطفالى، وعندما تعرضت للحادثة.. تغير كل شىء حتى اعتقادى بأن الاستسلام للواقع مرادف للحزن والكآبة.. فقد أدركت الآن أنه قد يجلب السلام النفسى أيضا».

وجاء على لسان امرأة ثالثة: «لقد أدركت أخيراً ضرورة أن أهب نفسى للحياة وأستمتع بها، والغريب أننى لم أبصر أهمية وروعة الحياة إلا عندما اقتربت من حافة الموت واستسلمت له».

هل الخوف من الموت والخوف من الحياة وجهان لعملة واحدة؟!.. ففى الحالتين يستحق سلوك الشخص اهتماماً خاصاً. وقد لاحظ نوى أن الحالات النادرة التى أُصيبت بالقلق الشديد بعد تعرضها لحوادث خطيرة تدرك تماماً أنهم لم يتوقفوا لحظة واحدة عن المقاومة بكل قواهم للمحافظة على سيطرتهم على الأمور حتى أثناء مرورهم بالجوانب الخيالية والمخيفة فى تجربة ضياع الشخصية.

كان روسيل نوى مختلفاً عن كثير من الأطباء النفسيين الأمريكيين، فلم يكن من ذلك النوع الذى تحدد الظروف استجابته وسلوكياته. فكان ينتقد نفسه لبعض أوجه النقص فى دراسته التى اعتمدت على الروايات أو الاعترافات وعلى الاختبارات النفسية فقط.

وفى الواقع لم تكن لديه وسيلة للتيقن من صدق هذه الروايات من خلال أهل المصابين أو الأصدقاء أو الزملاء لمعرفة ما إذا كان هؤلاء المصابون قد تغيروا بالفعل، ففى الحالات النادرة فقط استطاع الطبيب ملاحظة التغيرات الهامة التى طرأت على سلوك المريض لمعرفته به قبل وقوع الحادث.

كان نوى يؤمن فى داخله بالعقل الباطن: تلك القوة الغامضة والملهمة فى حياة كل منا.. كان يلجأ إلى تحليلها وتحليل كلمات المرضى ورواياتهم لمعرفة

ما يدور بداخلهم.. ولكنه ظل دائماً متشككاً من ادعائهم فقدان رهبة الموت للأبد، هل هى أكذوبة صارخة؟ وكيف يمكن تحديد دور العقل الباطن فى هذه الظاهرة؟.

إن من السهل فهم ما يحدث وقت الحادثة.. فجهاز الإنسان الدفاعى يبدأ فى العمل فى محاولة للافلات من الموت بأى وسيلة، وهنا لابد من محاصرة «الأنا» الواعى فى الإنسان لأنه قد يفسر كل شىء بإحباطه وتشاؤمه. إنه يعلم أن الموت قادم لا محالة فيرتجف من الخوف ولكن اللاوعى يحول هذا الخوف بخبث إلى طاقة لإنقاذ الشخص.

حتى الآن.. لم يواجه نوى أى مشاكل فى فهم وتحليل ما حدث، ولكنها الخطوة التالية التى ينهار معها كل شىء.. فلنتصور أن الجهاز الدفاعى يعمل لينقذ المصاب بمعجزة بعد أن تعلق بغريزة حب البقاء، وعندما يفيق مما حدث له يعود «للأنا الواعى» سيطرته على الأمور، فيتساءل المصاب «ماذا حدث؟». إنه يتذكر الحادثة ولكن دون تفاصيل.. ويدرك فى النهاية أنه نجا من الموت، وقد يغشى عليه من شدة الانفعال.

ولكن السيناريو الحقيقى مختلف تماماً.. فما هى العلاقة بين التهديد الذى تمثله الحادثة وبين استعراض مراحل الحياة المختلفة؟ هل هو نوع من التداخل كما يقول «باتلر»؟. ولكن ما الهدف وراء ذلك؟.

وما هى تلك الخدعة التى يقوم بها العقل الباطن أو اللاوعى؟.

إن التحليل النفسى يجيب على هذا السؤال بأن تلك الخطوة تعتبر إرتدادًا للطفولة، فعندما يشعر الشخص بأنه مهدد بالموت يبحث عن العودة لصورته البدائية التى يعرفها خارج هذه الحياة والتى تتمثل فى رحم الأم!

وبالتالى فإن تجربة ضياع الشخصية تشابه حلماً داخل رحم الأم، ولكن هل يمكن أن يكون لهذا الحلم المرتد للوراء هذا التأثير الفعال فيسبب تحولاً نهائيا فى عقلية الناجين من الموت؟.

لم يجد نوى إجابة على هذا السؤال.. فقد كان مستحيلاً من وجهة نظره أن يتلاشى – فى الواقع – الخوف الكامل من الموت، لذلك كان يعود دائماً لنظرية فرويد التى تقول : إن العقل الباطن يتجاهل دائماً الموت ولا يستطيع تصوره والدليل على عدم نضج العقل الباطن أننا فى داخلنا نعتقد أن الآباء والأصدقاء الذين توفوا ليسوا إلا غائبين عنا، لذلك فإننا عندما نحلم بهم نراهم يتحدثون إلينا وكأنهم لازالوا أحياء.

ولكن كيف يصاب الإنسان بالرعب من السقوط أوالحادثة، ويستطيع رغم ذلك تنظيم ذلك العرض السينمائى الذى يشاهده أثناء ضياع الشخصية؟ إن الأمر لازال محيراً للطبيب النفسى.. فمن الصعب الوصول إلى حقيقة الدوافع الإنسانية وهو لا يعرف «من يخدع من» فى تلك الرواية؟.. إننا جميعاً نتصرف كأطفال فى مواجهة الموت: ننكره ونستبعده، يقول خبراء التحليل النفسى إننا فى داخلنا نسعى للخلود ونحن فى ذلك لا نختلف كثيراً عن الحيوان الذى تتملكه غريزة حب البقاء.

إننا نظل طوال حياتنا نكذب ونخدع أنفسنا.. يقول خبير التحليل النفسى «ساندور فيرنزى» إن صفات الإنسان عبارة عن تكوينات عصبية فى ذاتها.. طبقات من الكذب الخالص، فكثيرون منا يزعمون عدم خوفهم من الموت ويأكدون أنهم يحيون حياة أسرية طبيعية وسعيدة، ولكن الحقيقة من وجهة نظر الطبيب النفسى أننا نخدع أنفسنا، فالقلق والحزن ينهشنا دائماً بدون مبرر، ومع ذلك نؤكد سلبيتنا تجاه نهاية رحلة العمر، إنها أكذوبة.. بل سلسلة من الأكاذيب.

وهؤلاء الناجون من الموت الذين يدّعون الشعور بالسكون والصفاء الشديد أيضا كاذبون، إنهم لايدّعون السلبية تجاه الموت.. بل على النقيض يفكرون فيه باستمرار, وقد يكون ذلك هو سر سكينتهم.. لقد عرفوا كيف يستسلمون

للموت، ومن هذا الاستسلام تجددت لديهم الرغبة فى الحياة والاستمتاع بها.

قرأ روسيل نوى عام ١٩٧٣ كتاب «إنكار الموت» للفيلسوف أرنست بيكر الحاصل على جائزة «بوليتزر» فى الأدب الواقعى، ووجد فيه تصور «فريدريك بيرل» للتكوين العصبى للفرد الطبيعى، والذى يتكون من أربع طبقات من الأكاذيب المتتالية تغلف كل واحدة منها الأخرى التى تليها تماماً مثل الدمّى الخشب الروسية الصنع. تمثل الطبقة الأولى آلاف الأدوار التى نلعبها فى حياتنا كل يوم، وتضم الطبقة الثانية الصفات الشخصية التى تميزنا فى تعاملنا مع الآخرين، أما الطبقة الثالثة فتختص بالهروب من مواجهة الفراغ غير المحتمل فى أعماقنا كرد فعل طبيعى، وأخيراً، فإن الطبقة الرابعة تمثل الأكذوبة الكبرى وهى تجاهل الموت.

يقول بيرل: «إن كثيراً من الناس يتوقفون عند الطبقتين الأولى والثانية ويقنعون بالاكتفاء بالأمور السطحية ولا يحاولون التعمق أكثر من ذلك، ويموتون فى النهاية دون أن يشكوا للحظة فى طبيعتهم الكاذبة، أما الذين يتمتعون برؤية ناضجة وواعية للحياة فهم يحاولون تحطيم الطبقات الأربعة من الأكاذيب، ولكن الويل لمن يحاول عزل الطبقة الرابعة، فسيجد نفسه فى مأزق بشع يعيش فيه مع القلق الدائم من الموت أو يغرق فى الكذب ليتجاهل وجود هذا الخطر المهدد».

هل من مخرج من هذا المأزق؟.. إن المخرج الوحيد الذى يراه أرنست بيكر فى كتابه هو الإيمان الذى أشار إليه العالم الوجودى الدنماركى «كير كيجارد» وتفسير ذلك هو أنه طالما «**الأنا**» **الوعى** أو «**الإيجو**» كما يطلق عليه علماء النفس يخدع الإنسان ولكنه لا يستطيع العيش بدونه، فإن الحل هو قتله، أو بمعنى آخر الموت ثم الميلاد من جديد فى واقع يسمو فوق الحياة العادية!

ولكن هذا الحل لم يقنع «نوى» فهو لم يفهم ماذا يعنى العالم الدنماركى بالواقع الذى يسمو فوق الحياة العادية.

وازدادت حيرة الطبيب النفسى وهو يتذكر أن معظم حالات مصابى الحوادث الذين بلغوا السكون الشديد بعد تجربة ضياع الشخصية قالوا أثناء حواره معهم: «لدى الانطباع يا دكتور بأننى توفيت ثم ولدت من جديد»، لقد تكرر نفس التعبير مئات المرات وكان نوى يظن فى البداية أنه مجرد تشبيه ساذج فلم يهتم به كثيراً. فنحن نموت ليلاً عندما ننام ونصحو ثانية فى الصباح، ولكن الناجين كانوا يقولون ذلك بنبرة خاصة مميزة توحى بالصدق.. إنها النبرة الصادقة مرة ثانية التى تميز الاتصال الروحانى عن الاتصال العادى بين الأشخاص فى الحياة.

ولكن ما هو الشىء الذى يموت لدى هؤلاء الناجين ثم يولد مرة ثانية؟!. إن الإجابة عن هذا السؤال ستجىء من تشيكوسلوفاكيا.

عقار الهلوسة

بدأت القصة فى براغ عام ١٩٥٥ فى معهد الطب النفسى الذى يرأسه الدكتور «لوبومير هانزليسك» تحت إشراف الدكتور «روبيسك» حيث تعيش تشيكوسلوفاكيا فى كنف الاتحاد السوفيتى منذ تسعة أعوام.

وكان الأطباء النفسيون الشبان الأكثر استقلالاً فى براغ يعتبرون أنفسهم من أنصار فرويد ولكنهم كانوا يخفون ذلك الانتماء العلمى لأن أنصار ستالين يكرهون هذا العالم النفسى.

كان هؤلاء الأطباء الشبان قليلى الخبرة بسبب نقص المعلومات، فقد كانت كتب علم النفس بدءاً من «فرويد» وحتى «ريتشى» ممنوعة من التداول فى تشيكوسلوفاكيا. وفى مجال التطبيق العلمى وجد هؤلاء الأطباء أنفسهم مجبرين على تجربة الكيمياء أو الأدوية المستخدمة فى العلاج النفسى فى مستشفيات بلادهم لمعرفة مدى فاعليتها.. وهكذا انحصر علم النفس فى المجال الكيميائى.

ومن بين مئات الأدوية المجهولة التى كان الأطباء النفسيون فى تشيكوسلوفاكيا يختبرون تأثيرها على المرضى.. كان هناك مجموعة لفتت أنظارهم وهى أدوية الهلوسة وأشهرها «إل. إس. دى ٢٥» الذى اكتشف بالمصادفة فى معامل «ساندوز» فى مدينة «بال» عام ١٩٤٣

وقد استخدم هذا العقار فيما بعد فى المعامل التابعة للقوات المسلحة لإعطائه لجنود الأعداء حتى يسبب لهم خيالات جماعية بشعة قد تدفعهم للجنون.

أبدى الأطباء النفسيون اهتماماً خاصا بهذا العقار الذى يؤدى إلى جنون وقتى يشبه بعض حالات البارانويا «جنون العظمة والاضطهاد» أو الشيزوفرينيا «انفصام الشخصية»، وكان المرضى يُعاملون كفئران تجارب فيتم إعطاؤهم

جرعة من الدواء تعادل مائتى ميكروجرام فتنتابهم ولمدة ثمانى ساعات حالات من البارانويا، أو الهياج الشديد أو المرح الهستيرى.

وهى جميعا أمراض خطيرة، ولكنها تظهر بصورة متزايدة عقب تعاطى هذا الدواء فيتخيل هؤلاء المرضى أنفسهم فى صورة نابليون أو هتلر أو ستالين!

وركز الأطباء النفسيون جهودهم لدراسة هذه الرحلات المؤقتة إلى عالم المجانين والتى استعاد بعضهم خلالها ذكريات المحن التى واجهوها فى حياتهم، وخاصة هؤلاء الذين أمضوا فترة من حياتهم داخل معسكرات الاعتقال ووصفوا مذابح جماعية رهيبة تحت تأثير العقار.

وقرر الأطباء أن يتعاطوا بأنفسهم عقار «**إل. إس. دى ٢٥**» حتى يتفهموا الحالات التى تنتاب مرضاهم. كانت الصدمة الأولى بعد تعاطى العقار هى الوضوح الغريب للمشاهد الخيالية، التى يراها الفرد حتى تكاد تبدو أكثر واقعية من الواقع نفسه، وقد ذهل الأطباء من تلك النشوة التى سيطرت عليهم تحت تأثير العقار، فحماس المرضى عندما يشاهدون أنفسهم من الخارج والسكون الذى يهيمن عليهم بعد ذلك لم يكن يلفت نظر المعالجين بنفس قدر اهتمامهم بقلقهم الشديد. فالنظريات تقول إن هذه النشوة الكبرى تندرج تحت بند الارتداد للطفولة ومرحلة الجنين «الشعور بالسعادة داخل رحم الأم»، ولكن عندما عايش الأطباء هذه النشوة تيقنوا أنها أمتع تجربة مرت بهم.

وفى عام ١٩٥٦ وبعد عام من بداية العمل بهذا النوع من العلاج النفسى التحق بمعهد الدكتور هانزليسك طبيب شاب متخصص فى الطب النفسى يدعى «ستانيلاس جروف» وانضم إلى فريق البحث الذى يدرس تأثير عقارات الهلوسة من خلال العديد من التخصصات مثل أطباء القلب والأعصاب وغيرهم تحت إشراف الدكتور «ميلوس فوتشوفسكى».

كان جروف أسمر ذا عينين ثاقبتين ووجه مربع كبير وابتسامة ساخرة تنير وجهه الخجول.. وحتى يشترك فى ذلك العلاج النفسى كان لابد أن يقوم

بنفسه بخمس تجارب شخصية، فتجربة عقار «إل. إس. دى» ضرورة لدراسته وحصوله على الدبلوم. وفى هذه الحالة يحتاج المجرب (سواء كان مريضاً أو طبيباً أو متطوعاً) إلى اثنين من المرافقين رجل وامرأة، يرقد الشخص فوق مرتبة على الأرض معصوب العينين وقد وضعت سماعات فوق أذنيه حتى تحدث التجربة فى الظلام وفى جو موسيقى.

فى ذلك الظلام شىء ما يضىء داخل هذا الشخص.. فرغم أنه معصوب العينين إلا أنه يشعر أنه يرى للمرة الأولى فى حياته.. صورا مألوفة تتسلل إلى ذهنه بوضوح شديد، وكأنه يراها لأول مرة. وقد أصبح كل شىء بها حياً وذات معنى.. حتى الحجارة.. إنه يرى غابة تتحدث أشجارها إليه، وتتمايل أوراقها بصورة غامضة وفيلاً أبيض يعرفه جيداً. فى سرعة البرق تداخلت عشرات الصور فى ذهنه.. مشهد من طفولته.. ووجه لامرأة ذات وجنات بارزة.. إنها «سنافرا» المرأة السمراء ذات العيون الخضراء التى كان يحبها. هاهو يتدحرج على الأرض على هيئة دب فوق مراعى جبال الجنوب تغمره سعادة كبرى، والغريب أنه لم يقدر أبدا معنى الإنسانية إلاوهو يرى نفسه على هيئة حيوان وقد اختفى «**الأنا**» **الواعى** لديه.. لم يعد له اسم.. مجرد حيوان يلهو فى المراعى، ولكنه كان يشعر بغبطة هائلة فى ظل الطبيعة المحيطة به وبطنه تلامس الأرض الرطبة ومنخاره يشم رائحة العشب.

فجأة يعود الوعى للشخص ويعثر على اسمه ويصرخ صوت بداخله: «مرحباً بك أيها المخادع!.. مرحبا بصورتك القديمة «**وبالأنا الواعى**». ويبدأ المريض فى تحليل ما يحدث له، وتتلاحق الأسئلة والتخمينات فى رأسه.. أسئلة معقدة لا يستطيع حتى أن يفسر لغتها.. أصبح الواقع أشبه بلغز كبير، أو بحيرة ضخمة من الصلب المنصهر.. إنه لا يفهم شيئاً.. ويصرخ كفى! ولكن الأمر لم يعد بيده.. لقد أصبحت البحيرة محيطاً. وشعر المريض أن عظام رأسه تنكمش لدرجة الشفافية.. لقد أصبحت هشة مثل عظام طائر صغير. وفجأة يُدفع بقسوة على الأرض، مثل قطعة لبان ملتصقة فى نعل حذاء! إنه شىء

كريه.. إنه يختنق.. يموت. إنه لم يعرف أبداً مثل هذه النشوة أو مثل هذا الكابوس الذى مر به فى تجربة استغرقت عشر ساعات كاملة.

حكى أحد زملاء جروف أنه كان يتمنى الموت فى تجربته ولكن أمنيته لم تتحقق.. لقد تخيل نفسه تحت تأثير عقار «إل. إس. دى» يتحول إلى أى شىء: منضدة.. مقعد.. أوخراج على ذقن صديقته!. كان متيقناً من أن النور فى أعماق وعيه لن ينطفىء. وكانت المفارقة أن تبدو فكرة الخلود، أو عدم الموت بالنسبة له مخيفة.. لقد شعر أنه يتحلل ويذوب دون أن يصل إلى ذلك الهدوء الأبدى الذى يغلف العدم وكأنما كتب عليه أن يشهد تحلله الذاتى.

وفجأة.. وجد نفسه يحتج على هذا الوضع الذى تسبب له فيه العقار. فما حدث له ليس له إلا مسمى واحد.. «الجنون أو البلاهة».

إن تأثير «إل. إس. دى ٢٥» غير محدد، فهو يسبب أنواعاً مختلفة من الجنون بصورة مبالغ فيها.. وتحت ذلك التأثير يشاهد المرضى أو الأطباء حالات من تدمير الهوية مثلما يحدث فى حالات البارانويا المتضخمة، فيعيش بعضهم مشاهد روحانية كاملة.. مثلا رأى أحدهم نفسه وكأن ملاكاً يطرده من الجنة، وتكلم عن معايشة أجزاء كاملة من طقوس وروحانيات الهندوس.

فى البداية.. لم يكن الأطباء النفسيون يلاحظون هذه التفاصيل.. وفى محاولة فهم أى شىء بدءوا يلتقطون كلام بعض الهاذين مثل قولهم «إنهم كانوا مجرد حصوة فى الصحراء منذ مائة ألف عام».. تفاصيل غريبة ومذهلة امتلأت بها روايات مجربى عقار الهلوسة، بعضها لم يكن من السهل وصفه بالكلمات فكانوا يلجئون للرسم تعبيراً عن رحلتهم تحت تأثير العقار.

أمام هذا الخليط العجيب من روايات المرضى.. لم يجد فريق الدكتور «فوتيشوفسكى» بُداً من العودة لنظريات العالم النفسى سيجموند فرويد، فهى الوحيدة التى استطاعوا من خلالها فهم بعض ما يحدث لهؤلاء المرضى، فالذين يعانون من مرض عصبى – وهم أغلبية – يستعيدون الذكريات المؤثرة فى

طفولتهم بمنتهى الوضوح مثل الإحساس القوى للوليد، رغبته فى الالتصاق بأمه، غيرته من أبيه.. إنها باختصار جميع مخاوف الطفولة. وهكذا توصل الأطباء التشيكوسلوفاكيون إلى أن تذكر الوعي لإحدى صدمات الطفولة كفيل بأن يقهر عقدة المرض العصبى ويطلق طوفاناً حياً من الذكريات.

حالة بيتر.. كان هذا الطفل يجد نفسه دائماً فى مواقف يتلذذ فيها بتعذيب نفسه دون أن يدرى السبب. فكان يبحث دائماً عن الساديين الذين يتلذذون بتعذيب الآخرين، ويستسلم لهم وكأنه ينتقم من ذاته، وفى اللحظة الأخيرة كان يحاول دائماً الهرب ولكن الوقت يكون قد فات. فى سن السابعة والثلاثين خضع بيتر للعديد من أساليب العلاج النفسى وأيضاً للعلاج بالعقاقير ولكن دون جدوى، ولكن تجربة «إل. إس. دى» معه كانت مفيدة، فقد طفت على السطح جميع الذكريات المعذبة التى عاشها. بعد عدة جلسات، استطاع بيتر أن يتذكر بالتفصيل الطريقة التى كان والداه يؤدبانه بها عندما كان طفلاً، أما المشهد الرئيسى أو سر عقدته فقد ظهر فى جلسة عاصفة: رأى بيتر خلالها نفسه وهو صغير ووالدته تضربه ثم تحبسه فى القبو بينما تحتفل باقى العائلة بالعيد. لقد زلزلت هذه الذكرى كيانه وكان ظهورها بداية شفائه.

أما ريناتا، فكانت فاترة العواطف وهستيرية الطبع حتى جاء اليوم الذى فجر لديها عقار الهلوسة العقدة القديمة الراسخة فى أعماقها، ففى سن الثامنة اعتدى عليها زوج أمها فى حمام المنزل ثم ضربها لتقسم بألا تتفوه بكلمة عما حدث. كانت رسوم ريناتا صارخة غير قابلة للتفسير، فقد رسمت زوج أمها على هيئة برج، ومن خلال العلاج.. بدأ ذلك البرج ينهار.. وفى النهاية ظهر المشهد الرئيسى فى وعى ريناتا، ورسمت منظر الحمام اللعين الذى حدثت فيه المأساة.

اندهش الأطباء التشيكوسلوفاكيين من أن المشاهد الرئيسية التى تمثل العقدة النفسية لدى المرضى لا تعود فقط للوعى وإنما يعيشونها مرة أخرى بكل

تفاصيلها وجوانبها.. فقد عاد أحد الأشخاص بذكرياته إلى سن الثامنة في موقف كان والده قد أوسعه فيه ضرباً فبدأ ينتحب بحرقة واحمر وجهه كمداً وأخذ قلبه ينبض بسرعة، بل إنه شعر بآلام الضرب فى أماكن محددة من جسده وظهر بها بعض التورم!.. كانت كلها علامات جسدية نفسية شديدة جعلت الأطباء النفسيين فى براج يفكرون فى «وليللم ريتش» ونظريته عن «الدرع العضلى» التى سجل فيها جميع صدمات الإنسان.

فى قمة نوبة الجنون التى تنتاب الفرد وهو يتذكر المشهد المأساوى فى طفولته يبدأ فى التقلب على الأرض وهو يصرخ: «افصلونى!» ويتقلص جسده آخذاً وضع الجنين فى بطن أمه وكأنه يتلقى ضربات من جميع الاتجاهات ويصدر أصواتا ضعيفة حادة وقد بدا على وجهه الذهول.

ماذا حدث؟.. عندما هدأ هذا الشخص شعر بسلام نفسي داخلى لم يعرفه من قبل ورسم طفلاً داخل ماكينة فرم اللحم معبراً عما رآه فى ذروة نوبة الجنون التى انتابته، ويحلل أطباء النفس التشيكوسلوفاكيين هذا التصور بأنه معايشة جديدة للحظة الميلاد.

وينكر أطباء النفس المتحفظون أن يكون مخ الجنين ناضجاً إلى الحد الذى يمكن معه تذكر أى شيء.. وحتى أنصار فرويد يستبعدون أى احتمال لوجود ذاكرة لحظة الميلاد.. ورغم ما أكده فرويد من أن انفصال الجنين عن أمه يعد أول تجربة قلقة يمر بها الفرد فى حياته ويحاول بعدها دائماً العودة إلى رحم أمه، لكنه أوضح أن رحلة الإنسان الحقيقة فى هذا العالم لا تبدأ إلا بعد الميلاد.

أما «أوتورانك» أحد التلامذه الأوائل لفرويد فأصر على أن ذكريات الطفولة تعمل كحاجز لتغطى الذكريات المؤلمة فى حياة الفرد. وبالتالى فإن شفاء المرضى يوصف بأنه «ميلاد ثانٍ» لهم يتخطون به العقدة العصبية المترسبة فى أعماقهم.

بعد ثلاثين عاماً قام الأطباء النفسيون فى براج باتباع نهج «رانك» وكان أكثرهم اهتماماً بأفكاره هو «ستانيلاس جروف» الذى أمضى عشر سنوات

فى وضع نظرية «مراحل ما قبل الولادة» التى تتكون من أربع خطوات تمر بها عملية الميلاد.

المرحلة الأولى: الرنين. ويشعر أثناءها الجنين أنه وأمه كائن واحد.

المرحلة الثانية: تقلصات رحم الأم التى تنذر بقرب موعد الولادة.

المرحلة الثالثة: يبدأ عنق الرحم فى الاتساع تدريجيا حتى يصل إلى اتساع أربعة أصابع بحيث يسمح بمرور الجنين.. وهى مرحلة هامة فى رأى جروف، فعندها يشعر الأشخاص دائماً بأنهم يموتون.

المرحلة الرابعة: خروج الجنين إلى الحياة حيث يشعر بأكبر ندم فى حياته وكأنه خرج من الجنة للجحيم.

ويرى جروف أنه سواء فى حالة ريناتا الهستيرية أو بيتر أو غيرهم فإن قدرتهم على تفريغ مكنون صدورهم كانت غير كافية، وكانت حيويتهم تتضاءل حتى جاء اليوم الذى تساقطت فيه الحواجز وتراءت لهم الذكريات الرئيسية التى اختفت وراءها عقدهم النفسية.

كانت عودة الوعى إلى ذلك المشهد الذى رأى فيه بيتر أمه تضربه ذا أهمية فعالة بالنسبة له لأن قربه من «المرحلة الثالثة قبل الولادة» ساعده على الشفاء عندما عايشها من جديد.

فى عام ١٩٦٥ بدأ جروف يضع الخطوط العريضة لنظرية «مراحل ما قبل الولادة» وكان قد نال شهرة فى مجال العلاج النفسى فى تشيكوسلوفاكيا، فدُعى إلى حضور مؤتمر عالمى فى الولايات المتحدة حول أساليب العلاج باستخدام عقاقير الهلوسة. وكانت رحلته الأولى إلى أمريكا فانبهر بانتشار هذا التيار العلاجى هناك غير أنه لم يجد نظرية واحدة جادة فى هذا المجال، ولم تكن لديه الشجاعة للإعلان عن نظريته التى لم تستكمل بعد، ورغم شعوره بتفوقه على الأمريكيين فى الناحية النظرية، إلا أنه أعجب بوسائلهم المتقدمة فى البحث وحماسهم وحرية معتقداتهم.

وقد سعد جروف كثيراً عندما أخبره الدكتور «جول ألكس» من قسم الطب النفسى بجامعة «جون هوبكنز» فى بلتيمور بأنهم على استعداد لإلحاقه لمدة عام بمؤسستهم وعلى نفقتهم الخاصة.

وفى عام ١٩٦٧ عاد «جروف» مرة أخرى إلى أمريكا.. وهناك اكتشف أن كل شىء قد تغير.. فقد اختفى عقار الهلوسة من المعامل وأصبح استخدامه من أكبر الفضائح فى مجال علم النفس حيث بدأ يدمنه ملايين الشباب كنوع من «المزاج».

وعندما اجتاحت الدبابات السوفيتية براج، قرر جروف عدم العودة لتشيكوسلوفاكيا والاستقرار فى الولايات المتحدة، وقد مارس هناك بالصدفة مجاله القديم فى تجربة عقار الهلوسة ولكن باستخدامه مع مرضى السرطان الميئوس من شفائهم أثناء عمله بمستشفى «سبرينج جروف» فى بلتيمور.

كان جروف قد حاول فى براج تجربة عقار الهلوسة على حالات السرطان أيضا ليعرف مدى إمكانية شفائهم إذا ما ساعدهم العقار على معايشة المرحلة الثالثة من مراحل ما قبل الولادة من جديد، ولكن إقتراحه رُفض من قبل الأطباء التشيكوسلوفاكيين وهاهو يمارس رغبته القديمة فى أمريكا حيث عرض عليه الأمريكيون ممارسة التجربة لديهم، ليس على المحتضرين ولكن على مرضى السرطان الذين لم يُجذ معهم أى علاج.

كان الكاتب الأمريكى «الدوس هيكسلى» هو أول من تحدث علنا عن تأثير هذا العقار.. وذلك من خلال قصته «جزيرة» التى روى فيها على لسان البطلة قصة زوجته الأولى ماريا التى توفيت عام ١٩٥٥ تحت تأثير العقار.

يقول هيكسلى فى روايته: «إن تجربتى الشخصية مع ماريا أكدت لى إلى أى مدى يمكن للأطباء أن يساعدوا المحتضرين على الموت فى سلام ويرتفعوا بآلامهم إلى مستوى الروحانيات».

وفى عام ١٩٦٣ عندما شعر الكاتب نفسه باقتراب نذير الموت طلب من زوجته الثانية لورا أن تحقنه بمائة ميكروجرام من عقار الهلوسة فجعله ذلك فى حالة صحو شديد وانعزال عن العالم سجلتها لورا فيما بعد بكامل تفاصيلها فى رواية بعنوان «لحظة خارج حدود الزمن».

نشأت فكرة علاج مرضى السرطان بعقار الهلوسة فى شيكاغو حين استخدمها الدكتور «اريك كاست» فى التخفيف من الآلام النفسية لمرضاه. وقد لاحظ كاست أن العقار لا يقلل فقط من الآلام السرطانية، وإنما يغير سلوك هؤلاء المرضى جذرياً أمام الموت.. فهو يثير الصراعات النفسية المتضاربة فى نفس المحتضر، ويساهم فى القضاء عليها بسرعة مضيئاً بذلك الأيام الأخيرة من حياة المحتضر لأنه حررها من رواسب القلق القديمة.

وانتقلت الفكرة بعد ذلك من شيكاغو إلى لوس أنجلوس حيث تم تطبيقها فى المستشفى الذى يعمل به جروف فى بلتيمور، وهناك كون جروف مع زوجته الأمريكية «جوان هاليفاكس» فريقاً طبيًا تخصص فى علاج مرضى السرطان بالمستشفى، فقد كانت الزوجة أخصائية نفسية درست علم الأنثروبولوجى (أصل الإنسان) وذات صلة وثيقة ببعض الهنود الذين يؤمنون بالروحانيات والقوى الخفية.

وكان جروف وجوان يختاران مرضى السرطان الذين يخضعون لعلاجهما بناءً على معايير محددة، فلابد أن يكون المرض قد استشرى فيهم وألا تزيد فرصتهم فى الحياة عن ثلاثة أشهر، وأن يكونوا محبطين نفسيًا ولكن أصحاء عقلياً.

وفى عام ١٩٧٤ بلغ عدد مرضى السرطان الذين يعالجهما هذا الثنائى مائة شخص سنوياً.

كان الفريق المعالج «جروف وجوان» يدير عدة حوارات غير مباشرة مع المريض وعائلته على مدى أسبوعين أوثلاثة فى البداية حتى تحدث نوع من الألفة بينهم ويتأكدون من عدم وجود أى موانع لعمل الصدمات العلاجية

للمريض. وكان المعالجان حريصين دائماً على ألا يعتقد مريض السرطان أن عقار الهلوسة سيشفيه تماماً، فالهدف الأساسى منه هو مساعدته على الخروج من حالة الاكتئاب العميقة التى سيطرت عليه بسبب المرض والوصول به إلى حالة السكون والصفاء النفسى. وكان بعض المرضى الذين سمعوا بعقار الهلوسة يخشون آثاره، ولكن جروف كان يشرح لهم أن الخطر هو فى تعاطيه بدون إشراف طبى ولمجرد الهروب من الواقع.

جى.. مريض بالسرطان، تعرف عليه جروف وزوجته عائليًّا بعد مجيئه للمستشفى، وعندما حان وقت العلاج طلبا منه أن يمدد جسده ثم حقنوه بجرعات من عقار الهلوسة تتراوح بين مائة وخمسمائة ميكروجرام كانت تستبدل أحياناً بعقار ذى تأثير مشابه، وكانت جوان تتصفح مع المريض ألبوم صوره الشخصية حتى يبدأ العقار مفعوله.. وحينئذ يمدد المريض جسده وتوضع ضمادة فوق عينيه وسماعات على أذنيه ليستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، ويبدأ رحلته.

كانت كل رحلة تحت تأثير العقار ذات طبيعة مختلفة حتى لوقام بها نفس المريض الذى كان جروف يعطيه خمس جرعات مختلفة من عقار الهلوسة. «بل إن هذه الجلسات العلاجية كانت أحياناً تصل إلى عشر وخمسة عشرجلسة يصل فيها المرء إلى أقصى حد من الشفافية والصفاء وكانت نتيجة العلاج النفسى فى هذه الحالات هى معايشة المرء للحظة وفاته.. فخلال تلك التجربة يعود المرء **للمرحلة الثالثة من مراحل ما قبل الولادة**. وفى اللحظة التى يعيش فيها هذا الجزء العنيف والمؤثر من ميلاده يعتقد أنه يموت.

إنه هنا.. منكمش فى وضع الجنين يشعر بالتقلصات العنيفة للرحم، وفى لحظة يسيطر عليه إحساس بأنه سيموت، فيقاوم ويصرخ شىء بداخله: «لا.. إنها مجرد لعبة.. إنه موت رمزى!». والواقع أن عقار الهلوسة يعطى مرضى السرطان وغيرهم انطباعاً بأنهم يموتون.

ولكن هذا الانطباع لا يمثل سوى المرحلة الأولى.. فهم يولدون من جديد مرة ثانية، لأن معايشة المرحلة الثالثة من مراحل ما قبل الولادة سرعان ما تقود للمرحلة الرابعة «خروج الجنين للحياة».. وهكذا فإن المرضى عادة ما يخرجون من هذه التجارب العلاجية بهدوء وسعادة. فتكون أواخر أيامهم فى الحياة هى أجملها وأكثرها صفاءاً ووضوحاً، ويؤثر ذلك بالطبع على الروح المعنوية لعائلاتهم.

إن حالة كل مريض على حدة تكفى لتأليف رواية.. لذلك جمع جروف وزوجته جوان بعض هذه الحالات فى كتاب مثير بعنوان «لقاء الإنسان مع الموت».

كانت سوزان وهى امرأة شابة فى الثانية والثلاثين تعانى من سرطان الرحم الذى يسبب لها آلاماً رهيبة فى العمود الفقرى. وقد اقترح عليها الأطباء لتخفيف آلامها إجراء جراحة لقطع الأعصاب الموصلة للآلام، غير أنها كانت ستصيب قدميها بالشلل التام والدائم. لذلك كانت فكرة الانتحار تلازمها دائماً حتى سمعت بتجربة عقار الهلوسة فى مستشفى «سبرينج جروف».

حكت سوزان عن حياتها للباحثين.. فقد عاشت طفولة بائسة قاست خلالها من أمها التى ألقت بها فى مدرسة داخلية، وفى سن العشرين تزوجت على غير إرادتها ورزقت بثلاثة أطفال، لقد شعرت بالخداع طوال حياتها ثم بالاضطهاد الذى دفعها إلى دخول مصحة نفسية، واحتفظ الأب بالأطفال الثلاثة.. ثم التقت هى فيما بعد برسام بائس أحبته وفى النهاية فوجئت بإصابتها بالسرطان.

خلال جلسة العلاج النفسى.. تألمت سوزان كثيراً وأصيبت بنوبات غثيان ولكنها خرجت من الجلسة بشعور مرح بعد أن اختفت آلامها.. وبعد عدة أيام عاودتها الآلام فقرر جروف وزوجته إخضاعها لجلسة علاج ثانية.

هذه المرة ، كانت التجربة غنية وفعالة..

لقد تخيلت سوزان نفسها حاملاً تحت تأثير عقار الهلوسة.. وأنها الأم والجنين فى آن واحد ووجدت نفسها فى بركة من الدماء وكأنها تموت، ثم أصبحت فى صورة أطفالها الثلاثة. وبين الرغبة فى الاعتكاف وحيدة والتطلع للاندماج فى العالم مع سائر البشر.. شعرت سوزان فى لحظة ما أنها تُمثل «الإنسانية المعذبة». فقد وجدت نفسها فى سلسلة من المشاهد ظهرت فيها تارة على هيئة فتاة إفريقية قُتلت برُمح، وتارة أخرى على شكل عصفور صغير فى إنجلترا فى العصور الوسطى قتل بسهم أيضاً. وأخيراً بدت وكأنها أم لجميع الجنود القتلى فى المعارك منذ بدء التاريخ.

هنا بدأت تجربة سوزان تتخذ شكلاً آخر.. فقد شعرت بأنها تذوب داخل طاقة النور التى تشع حباً أبدياً. ثمّ أحست بأنها تولد من جديد، وفى نهاية التجربة عادت إلى ذاكرتها مشاهد عديدة من طفولتها وكانت تتحرك كما لو كانت رضيعاً فى مهده.

لقد تغيرت سوزان وشعرت بحب جارف تجاه صديقها الرسام البائس، فأحضروه لزيارتها.. ورغم استمرار آلالام فقد تغيرت حياة سوزان تماماً.. لقد وجدت فى نفسها قوة وحيوية ساعدتها على استكمال دراسة علم النفس التى تركتها منذ اثنى عشر عاماً، بل إنها قبلت إجراء جراحة العمود الفقرى التى رفضتها من قبل، وكان الجراح ماهراً بحيث استطاع القضاء على مواطن الألم لديها دون أن يؤثر ذلك على حركة قدميها. وخلال بضعة شهور بدأ الورم الخبيث فى بطنها يختفى تدريجيا.. وكانت تلك حالة نادرة أذهلت الأطباء!!.

لقد تغيرت سوزان وأصبحت تقضى الساعات فى قراءة المؤلفات عن الديانة البوذية والمسيحية، فقد خلقت التجربة بداخلها نوعاً من التعطش والشغف بالروحانيات، ولم تعد تخشى الموت، فهى تؤمن بالبعث والحياة الأخرى.

بعد عام من الهدنه مع المرض، عادت الآلام فجأة وخلال أسابيع قليلة بدأت حالة سوزان الجسمانية تتدهور، غير أنها احتفظت بوعيها وابتسامتها الهادئة لآخر وقت رغم المعاناة الشديدة.

كان «تد» من الحالات الصعبة التى واجهها الباحثان.. فهو شاب زنجى ضخم البنية فى السادسة والثلاثين من عمره مصاب بسرطان القولون، وكانت آلامه ومعاناته تدفعه للتصرف بعنف وحدة مع أطفاله وزوجته «ليلى»، واتصلت ليلى أخيراً بمستشفى «سبرينج جروف» بعد ست سنوات من تشخيص مرض زوجها.. فعلى مدى السنوات الست والأطباء يقولون إن «تد» لن يعيش سوى بضعة أسابيع. وبينما يزداد تد عناداً وقسوة كانت حالته تتدهور وكذلك علاقته بزوجته. فكانت لكل منهما علاقاته الغرامية الخاصة.

حكى تد قصة حياته.. لقد عاش طفولة شاقة لدى عمه الذى كان يعامله بخشونة بعد أن فقد أبويه فى سن الخامسة، ثم اشترك فى حرب فيتنام التى فجرت مزيداً من العنف فى سلوكه، وحينما عاد إلى الولايات المتحدة عاش حياة ماجنة حتى أصابه مرض السرطان.

رأى تد تحت تأثير العقار «عقار الهلوسة» ساحات المعارك يموت فيها آلاف الجنود، ثم يبعثون ثانية فى مشهد جنائزى ضخم.. ورفض تد أن يضع العصابة فوق عينيه أو يمدد جسده أثناء التجربة. لقد أصابه جنون البارانويا فتخيل جروف تارة عمه الشرير، وتارة أخرى شيطاناً، ثم مخبراً سرياً يحاول الحصول منه على اعترافات عن جرائم القتل العمياء التى ارتكبها أثناء اشتراكه فى حرب فيتنام.

وخرج تد من الجلسة محبطاً، وبدت نتيجتها فاشلة. وفى اليوم التالى ازدادت حالته سوءاً، ولكن فى اليوم الثالث بعد التجربة أبدى المريض شعوراً بالسعادة واختفت جميع آلامه مما أدهش المعالجين، وظل على تلك الحالة أسبوعين فقرر أن يعود لعمله..

ومرت خمسة شهور كاملة كانت أشبه بمعجزة فى حياة تد.. غير أنه لم يحدث أى تحسن فى علاقته بزوجته، وفجأة عاودته الآلام وانهارت معنوياته تماماً، ولم يعد قادراً على مغادرة الفراش فاستدعت الزوجة جروف وجوان اللذين أجريا عدة حوارات مع المريض وزوجته، ولأول مرة صرحت ليلى بأنها تعلم بمرض زوجها منذ ست سنوات ولكنها لم تخبره. وكانت المفاجاة أيضاً أن تد كان يعلم بحقيقة مرضه ولكنه خشى أن تتركه زوجته إذا علمت بالأمر، لذا تعجب تد من أن زوجته لاتزال إلى جواره رغم معرفتها بحقيقة مرضه فأزاح ذلك الخبر عن كاهله عبئاً معنوياً كبيراً.

ولكن ثمة حاجز ظل بينه وبين زوجته.. فقد كان يشعر بالعجز لعدم قدرته على معاشرتها، وكان دائم اللوم والتوبيخ لأطفاله، كان يريد أن يترك فى أذهانهم صورة للأب القوى المتماسك، ولكنه لا يستطيع أن يخفى ضعفه وانهياره. واقترح عليه جروف أن يعترف لأطفاله بحقيقة مرضه بشجاعة حتى يتفهموا الوضع، فإن ذلك من شأنه أن يزيد من قيمته فى نظرهم، وفكر تد مليا فى تلك النصيحة ووافق عليها وعلى الخضوع لتجربة ثانية للعلاج بعقار الهلوسة.

هذه المرة وافق تد على وضع العصابة على عينيه والسماعات فوق أذنيه.. ورأى نفسه يعبر بحيرة ويتجه لعالم آخر مختلف عن عالمنا، هناك زار مجزراً ضخماً تذبح فيه الخنازير، وقبل أن يغيب تد فى تأملاته الروحية التى حلق فيها بالقرب من نور سماوى وعبر خلالها قصوراً من الماس.. شعر أنه وصل إلى أعماق خلاياه السرطانية!.

وخرج «تد» من تلك التجربة مختلفاً تماماً حتى أن ليلى لم تعد تعرفه.. لقد أصبح زوجاً مثالياً صبوراً مرحاً، وأخذ يهتم بقراءة كتب الديانة البوذية والهندوسية.. ولأنه فقد القدرة على الحركة فقد استغل وقت فراغه فى تسجيل قصة حياته على شرائط كاسيت لأطفاله، ورغم تدهور حالته الصحية ووجوب استئصال إحدى كليتيه، إلا أن الهدوء والصفاء الذى يغلف سلوكه كان يزداد

دائماً لدرجة أدهشت زوجته.. لقد تغيرت حياته تماماً.. فهو لم يعد ذلك الرجل المتوتر.

ذات ليلة ساءت حالة «تد» بشدة.. فقد أتلف السرطان كليته الثانية، وعندما نقل إلى المستشفى فى حالة حرجة طلب حضور جروف وجوان، ولكنه كان قد ذهب فى غيبوبة عندما حضرا إليه، فأخذ جروف يهدئ من روع ليلى وهى تبكى فى حرقة، بينما جلست جوان إلى جوار تد تقرأ له من نسختها المختصرة لكتاب «أهل التبت عن الموتى».

وفجأة حضرت ممرضتان وحملتا تد إلى غرفة العمليات وسط دهشة الأطباء النفسيين. وكتب له عمر جديد.. فقد أفاق مرة أخرى وأخذ يحكى مشاهدات أذهلت جروف وجوان. لقد رأى وسمع كل ماكان يحدث بجواره أثناء الغيبوبة وشعر فى نفس الوقت أنه يتجه نحو الظلمات، وأوضح المريض أن نصائح جوان كانت قيمة بالنسبة له، فقد اتجه بالفعل إلى طاقة نور مبهرة بزغت فى الظلام، وكان يشعر بالهدوء والسكينة كلما اقترب منها.. شعوراً تعجز عن وصفه الكلمات، وكأنها مشاعر قديمة أصبحت فى حكم النسيان منذ زمن طويل.

أثناء التدخل الجراحى، توقف قلب «تد» عن النبض مرتين ولكن ذلك لم يعرقل تجربته فى الذوبان داخل النور المبهر.. بل على النقيض، لقد ضاعف إحساسه بها وأتاح له رؤية أجزاء كبيرة من حياته الماضية. كان كمن يعيش للمرة الثانية، وخاصة اللحظات التى كان يقتل فيها أو يضرب الآخرين، كان الأمر غريباً بحيث يصعب تصديقه.. فقد أحس بالموقف كله.. شعوره الخاص فى ذلك الوقت وأيضاً شعور ضحاياه!

هل هذه حالة «إن. دى. إى»؟!. إن ستان جروف لايعرف هذا التعبير ولكنه سمع بمشاهدات بعض الناجين من الموت الطبى المؤقت، وأعربت جوان عن حيرتها، فروايته تشبه بعض الشىء الخيالات التى يسببها عقار الهلوسة.

وأكد «تد» رأى الباحثة قائلاً: «بل إنهما تتشابهان إلى حد كبير. آه! لو عرفتم كم كنت سعيداً، والسبب هو استفادتى من جلسات العلاج النفسى، فبدونها كنت سأشعر بالخوف، ولكننى لم أخش شيئاً».

عند هذه النقطة من الدراسة.. لابد لى من التوقف والعودة للبداية التى أثارت شهيتى لتأليف هذا الكتاب.. فبعد لقائى عدة مرات بجروف تفجر داخلى فضول غريب وتذكرت لقائى بالدكتور رونالد سيجل – عالم النفس الذى حدثنى عن الجرعة الزائدة.

هل تذكرون؟.. لقد قال لى سيجل إن تجارب «**إن. دى. إى**» الشهيرة تماثل ما يحدث للمرضى تحت تأثير عقار الهلوسة.. وإن تلك الجرعة الزائدة الداخلية التى تفرزها العقاقير فى المخ هى التى تتسبب فى الرحلات الغريبة إلى حافة الموت.. ولذا فهى جميعا تحوى انفعالات وعواطف قوية. إن الموصلات العصبية فى الجهاز العصبى هى الرسُل المجهولة وراء تصرفاتنا وانفعالاتنا.

والواقع أن نظرية سيجل حول الجرعة الزائدة هى التى أغرتنى بالإقدام على هذه المغامرة، فلولاها ما كان هذا الكتاب.

ولكن المشكلة أن رونالد سيجل حصر التجربة بأكملها فى كيمياء المخ متجاهلاً الجزء النفسى الذى يهتم بالاحتضار واللحظات الأخيرة فى عمر الإنسان.. فقد كان يخشى أن يؤدى التوسع فى انتشار هذه الظواهر الغريبة إلى الارتداد لعصر الخرافات والشعوذة، كما أنه تصدى للحديث عن تجارب لم يمارسها بنفسه، ووصف سيدة زميلة مثل إليزابيث كوبلر بأنها مريضة عقليا ومنحرفة.

ولقد دفعنى خوف سيجل وتعصبه إلى الاتجاه لعلماء آخرين لإتمام العمل الذى بدأته، وهكذا انتقلت من سابوم إلى رينج ثم إلى جروف. وقد وضع الأخير بجلساته العلاجية النفسية حدود النهاية لدراستى. فقد رأى جروف

أن الفرد يعيش ميلاده من جديد فى لحظة احتضاره.. هذه التجربة يعيشها الفرد كرمز قبل وفاته الجسدية والفعلية.

وقد أثبت جروف من خلال جلساته العلاجية بالمستشفى أن مرضى السرطان لابد وأن يعودوا بذاكرتهم للمرحلة الثالثة فى «مراحل ما قبل الولادة»، والتى يستعدون فيها للخروج من رحم الأم حتى يستطيعوا التخلص من حالتهم العصبية التى تزداد سوءا بسبب معاناة المرض القاتل ويصلوا إلى حالة السكون والصفاء النفسى. وبعد المرور الصورى أو الرمزى برحم الأم، يصف الفرد مشاهداته من «خروجه خارج جسده» و«وجوده فى عالم رائع فائق الوصف» حيث يذوب فيه كيانه بينما يزداد وعيه حدة، ويدرك أن الموت لا يخيف، فهو مجرد «طريق نسلكه».

لقد وضع ستان جروف وزوجته جوان المتخصصة فى العلوم الروحية من خلال جلساتهما العلاجية النفسية أيديهما على سر قديم اكتشفه الرهبان والهنود والمؤمنون بالقوى الخارقة للطبيعة" منذ وقت طويل. هذا السر هو أن إقبال الإنسان على الموت" أو معايشته للحظات الموت والتى يكتب له بعدها عمر جديد تكون ذات فائدة كبرى بالنسبة له فى حياته التالية، حتى أن بعض الرهبان الذين يعالجون الناس من خلال الروحانيات كانوا يعطون من يريد العمل بالرهبنة جرعة قوية من العقاقير تؤدى به فى غيبوبة لعدة أيام (وقد تقتله)، لأنه لابد أن يعيش لحظات الاحتضار والاقتراب من الموت حتى يعرف ما هى الحياة!

وفى الألعاب الخطيرة مثل القفز الذى يقوم به متسلقو الجبال بعد أن يثبتوا أنفسهم بحبل طويل حول وسطهم، يواجه اللاعب خطر الموت. وعند سؤالهم قالوا إن السقوط من مكان مرتفع والخوف الطبيعى المصاحب لتلك المغامرة يولد لديهم شعوراً بمتعة غريبة تكشف لهم الحياة بمفهوم جديد راق يسمو فوق البشرية رغم أنهم لا يعرفون شيئاً عن حالة «إن. دى. إى». ولازال

المعالجون النفسيون يحاولون الوصول إلى الإجابة عن سؤال هام: ماذا تفعل رهبة الموت الكامنة فى أعماق النفس البشرية؟ وكيف يحدث بها هذا التغير؟

إن الأمر لازال معقداً، حتى فرويد رائد علم النفس لم يستطع الوصول إلى الإجابة الصحيحة، لقد صور النفس البشرية على أنها مسرح لصراع دائم بين قانون العدم أو غريزة الموت، وبين قانون الحياة أو حب البقاء وفى الطبيعة تتصارع هاتان القوتان داخل الإنسان.. فإحداهما تدفعه نحو الفناء والزهد فى الحياة للعثور على الراحة الأبدية، والأخرى تحرك فيه الطاقات البيولوجية وتحثه على التمسك بالحياة والاستمتاع بها.

والغريب أن عمالقة التحليل النفسى الذين تناولوا الموت لم يخطر على بالهم أن تحليل ظاهرة الاحتضار ودراستها سوف يصبح واحدا من أكبر مهام علاج النفس البشرية، ولايزال السؤال مطروحاً: ماذا يموت وماذا يولد من جديد داخل نفس الشخص «المجرب»؟ وهل يجد المحتضرون فى أعماقهم هذه المشاهدات التى تمثل حالات (إن. دى. إى)؟ إى»؟ وهل تخرج هذه المشاهدات من اللاوعى أم من القوى البدنية والنفسية التى تتحرر فى الإنسان أثناء تلك التجربة؟

الملاحظ أنه أثناء تدهور حالة المحتضر جسمانياً تتحسن حالته النفسية وكأن اللاوعى يحميه من الوقوع فى دائرة الإحباط الكامل.

وفى عام ١٩٧٦ اضطرت مستشفى «سبرينج جروف» فى بلتيمور إلى إيقاف العلاج النفسى باستخدام عقار الهلوسة بعدما صدر قانون بمنع استخدامه من الحكومة الفيدرالية.

وهكذا انتهت إحدى المراحل الهامة فى الممارسة العملية بالنسبة لجروف والتى غيرت على مدى تسع سنوات قضاها فى الولايات المتحدة رؤيته للعالم. إن هذا التغيير الذى أدخله العلماء فى بداية هذا القرن على أفكارنا ورؤيتنا

للعالم كان يحمل بداخله تأثيراً أقوى من الآثار التى تركها عصر النهضة فى حياة البشرية فى القرن السادس عشر.

هذا التغيير ساعد فيما بعد جروف والعلماء المتخصصين فى دراسة العلاقات النفسية بين الأشخاص وفى رسم صور جديدة ومختلفة لحالة اللاوعى فى النفس البشرية.

الوعى .. واللا وعى

كان كينيث رينج يؤمن كعالم نفسى بأن علم التحليل النفسى هو أفضل العلوم الإنسانية لمحاولته إيجاد ترابط بين الأشياء المختلفة، فحتى المراحل الشهيرة للتطور النفسى لدى الطفل فى علم النفس ينقصها الترابط.. إن علم النفس من وجهة نظر كينج «أرض مهجورة تحتاج لمن يستصلحها»، وهو على استعداد للمساهمة فى هذه المهمة.. فرغم عضويته بالمجلس الأعلى لمؤسسة «ألفا بيتا كابا» التى تضم خريجى الجامعات المتفوقين ، إلا إنه قد سأم هذا الدور النظرى.

ينتمى رينج لعائلة يهودية أمريكية من أصل ألمانى.. كان آخر المؤمنين فيها بالديانة اليهودية هو الجد، أما رينج فهو جامعى متحرر نشأ فى كاليفورنيا وعاش طفولة سعيدة ونشيطة، وقد بدأ دراسته فى بيركلى ثم أنهاها فى مينوسوتا. وكانت أول أعماله المنشورة فى علم النفس هى «المصحة النفسية كآخر أمل فى العلاج»، ورغم إنسانية الموضوع إلا أنه لم يضف إليه جديداً، وقرر رينج أن يكرس جهوده فى مجال البحث العلمى ولكنه لم يستطع أن يحدد اتجاهه فى البداية.

فى صيف ١٩٧٠.. تعاطى رينج لأول مرة جرعة من عقار الهلوسة «إل. إس. دى»، كان عمره ٣٥ عاماً ويشغل منصب أستاذ علم الاجتماع النفسى فى جامعة كونكتيكات فى نيو إنجلند.. وقد قام بتلك التجربة وسط الطبيعة وعلى شاطىء بحيرة وكان يلازمه أحد الأصدقاء ليكون مرشداً له.

لم يشعر رينج بعد تعاطى العقار بأنه انفصل عما حوله.. بل على النقيض فقد تسمر فى مكانه.. كان يرى حوله كل شىء بوضوح شديد وكأنه يراه

لأول مرة دون أن يعتاده.. فالتعود يقتل فى داخلنا القدرة على رؤية الألوان ورونق الأشياء والتشوق إليها، إنه يتمتع مثلاً برؤية الشجرة وهى تخرج من أعماق الأرض، بل ويتخيل نمو خلاياها والمعادلات الكيميائية لإفراز ثمراتها.. إنها عجائب لم يتصورها من قبل.

ويهتف صوت بداخله: «هل أصبت بمرض عقلى؟» لقد فقد إحساسه بنفسه.. وبدأ يتخيل عودته لرحم الأم.. ويقطع هذا الصوت ضحكة رنانة تحمل سؤالاً: هل يكون مريضاً إذا أحس بحياة النبات كما يشعر بحياته؟ أم أن العكس هو الصحيح؟

وفجأة تولد لديه شعور جديد تماماً.. إنها عاطفة قوية وواعية مثل بصيص نور يضىء بداخله، ثم يحرقه من الداخل لشدة قوته.. إنه الوعى الذى يظهر فجأة ليوضح علاقته بالعالم من حوله.. ويتساءل كينيث رينج: «**ما هو الوعى**»؟. لقد تركزت دراسته فى الجامعة على اللاوعى أكثر من اهتمامها بالوعى.. حتى أساتذته علموه تجنب الإجابة عن هذا السؤال.

لقد تحول إلى مجرد دودة أرضية صغيرة، وكلما شعر بهذه الضآلة كلما بدا وعيه أكثر اتساعاً. وشعر رينج فى صورته الجديدة برغبة عارمة فى الاغتسال.. فجرى نحو البحيرة يستمتع بالاستحمام حتى بلغ الماء «جذعه». وفجأة أدرك أنه لا يغسل جسده فقط.. هناك شىء آخر بداخله يتنفس عندما يلقى بقطرات الماء على وجهه وأكتافه.. لقد اكتشف الطبيعة الرمزية للماء. هذا العنصر الأساسى فى تكوين أجسامنا.. إن الماء يتحدث إليه وهناك علاقة غريبة بينهما.. لقد أصبح هو والماء شيئاً واحداً.. بل إن الكون كله يتحدث إليه.. يا للروعة!، لم يستطع رينج أن يغالب مشاعره فأخذ يبكى مستسلماً لما حوله.. إنه لا يدرى ماذا يفعل.. وبدأ يصرخ بكل قوته.. ويتهلل جسده من النشوة.. لقد أصبح العالم كله من حوله قطعة موسيقية.. فظل يرقص حتى المساء.

بعد حوالى عشر ساعات بدأ رينج يعود لحالته الطبيعية بعد انتهاء مفعول العقار، ولكن هذه التجربة جعلت عمله بالجامعة مملاً خاصة وأنه لم يكن من البداية متحمساً لدراسة «التأثير غير المباشر لإدمان الخمر على الرسوب فى الدراسة» فحتى دوافع الباحثين كانت تتسم بالسطحية.

وبدأ رينج يبحث عن مخرج.. لقد أقر أخيراً عدم قدرته على الاستمرار فى هذا الطريق الممل.. إنه يريد أن يكرس جهوده حول فهم طبيعة **الوعى والأنا**.. هذا **الأنا** الذى كان أضعف فى الواقع مما شعر به أثناء نشوة التجربة.

يقول العالم النفسى سيجموند فرويد.. «إذا أردنا شق طريقنا نحو تصور متكامل للحياة النفسية، فلابد أن نتعلم كيف نتحرر من الأهمية التى ننسبها لحالة الوعى والإدراك».

أخذ رينج ولعدة ساعات بعد انتهاء التجربة يستعيد ذكرياتها ويحاول تحديد ما حدث بالضبط عندما شعر بعودة الوعى إليه، لقد تركزت ذاته فى تلك اللحظة فى نقطة واحدة وكأنها مركز الثقل فى جسده، ولهذا شعر بأنه فى أحسن حال، ولكن ما هى هذه النقطة؟

تعاطى رينج عقار الهلوسة عدة مرات.. وفى كل مرة كانت التجربة مختلفة.. أحيانا تؤلمه وأحياناً أخرى تكشف له عن جوانب جديدة فى علاقته بالآخرين وفى كل مرة كان السؤال الملح هو القاسم المشترك: (ما هى تلك النقطة التى تقول أنا) والغريب أن تعمق رينج فى دراسة اللاوعى هو الذى منحه مؤخراً الإجابة عن هذا السؤال.

فى عام ١٩٧٢ صحبه أحد زملائه إلى جامعة هارفارد لحضور مؤتمر لجمعية علم النفس «الذاتى»، وكان المحاضر فيها هو «ستانيسلاس جروف» الذى تعرض فى حديثه إلى اللاوعى فأجاب بذلك على كم من الأسئلة التى أثارتها تجربة العلاج بالعقاقير لدى رينج.

حدد جروف أربعة مستويات للتجربة.. فالجانب السطحى منها الذى يعود فيه الوعى فجأة يتحدث فيه من تعاطوا عقار الهلوسة عن رؤى هندسية وجمالية وتحولات فى الأشكال والألوان، هذا الجانب هو كل ما يستطيع الجمهور العريض من الناس تذكره عن تأثير العقاقير المستخدمة فى العلاج النفسى، ولكنه للأسف لا يمثل أى أهمية بالنسبة لجروف.. فهى مجرد محاولات لتفسير شفرة الأحاسيس لدى الفرد.

أما المستويات الأكثر عمقاً تحت هذه القشرة الوهمية فى ذكريات الأحداث التى مرت بالفرد منذ مرحلة الميلاد (على طريقة فرويد)، هذه الذكريات ترتبط ببعضها بصلات يطلق عليها جروف «كويكس» وتعنى «مجموعة محددة من الذكريات المشتقة من التجارب والخيالات المُرَكزة».

إنها آثار تجارب سعيدة أو مريرة مترابطة فيما بينها بحلوها ومرها.. عندما تؤلك إحداها، تتألم من بقية التجارب.. وعندما تتخلص من واحدة تغيب جميعها عن ذهنك.

وتظهر المراحل الشهيرة «**مراحل ماقبل الولادة**» فى الطبقات الأكثر عمقاً كأربعة إسطوانات تتعلق بها تجارب «كويكس»، وهدف العلاج النفسى هو فك تلك الروابط وحل شفرتها بطريقة واحدة هى إحياء لحظة الميلاد من جديد، وهكذا يمر الشخص بإحدى أعظم التجارب فى حياته: «يعيش موته» ثم «يولد من جديد».

كان الأمر المثير للدهشة فعلاً فى المادة التى جمعها جروف هى التفاصيل.. فقد تذكر الأشخاص تحت تأثير عقار الهلوسة تفاصيل دقيقة عن وضعهم فى رحم الأم حينما كانوا أجنة، منها على سبيل المثال نوعية السائل الأمنيونى والافرازات المحيطة بهم.. نبضات قلب الأم والاهتزازات التى شعروا بها.. بل إن بعضهم اكتشف تحت تأثير عقار الهلوسة أن الحبل السرى للأم كان ملتفا

حولهم حتى كاد يخنقهم.. والغريب أن تثبت صحة هذا الكلام كلما أمكن الرجوع إلى الملفات الطبية حول حالة الأم عند الولادة.

ولكن هل نستطيع فعلاً أن نتذكر أنفسنا داخل رحم أمهاتنا؟!. إن قصة الحبل السرى من الممكن أن تكون قد ترددت فى المنزل أمام الطفل وسمعها ثم نسيها لكنها اختزنت فى ذاكرته حتى عادت للوعى تحت تأثير العقار، ولكن واقعة انفجار «جيب المياه» قبل موعده بعدة ساعات ليعجل بالولادة عادة لاتكون مجالاً للحديث فى المنزل.

وقد استطاع الدكتور جروف من خلال الخمسة آلاف حالة التى قصت رحلاتها تحت تأثير عقار الهلوسة أن يسجل أمثلة غريبة لايستطيع العقل تصورها.

ويستمر جروف فى قراءة قائمة الأمثلة الغريبة أمام الحاضرين.. تذكر أحدهم بأنه شخص مختلف تماماً أو أنه قبيلة بأكملها حتى أنه يذكر على وجه التحديد تفاصيل العادات والطقوس فى تلك القبيلة.

ذكريات مختلفة ظهر فيها هؤلاء المجربون للعقار على هيئة حيوان.. نبات.. غابة.. بحيرة.. جبل.. نار.. كوكب.. أو حتى الوجود كله!

سرت ضجة فى القاعة.. وبدا رينج مشدوها مما يسمع.. وصرخ أحد الحاضرين: «ممن تسخرون؟». وصفر البعض وصفق البعض الآخر وانصرف بعض الحاضرين ورفع اثنان أيديهما طالبين مزيداً من التوضيح.. هل هى حقاً ذكريات؟

وأجاب الدكتور جروف: لا.. قد نسميها أشكالاً رمزية. إن العلماء المتحفظين يطلقون على هذا الطوفان من الرؤى «خيالات» وآخرون يسمونها «ذاكرة تناسلية» (تبحث تكون الأنسال وتطورها) تتفجر داخل الفرد تحت تأثير عقار الهلوسة.

إن فرويد الأب الروحي لعلم النفس الحديث استطاع التوصل للأنا الواعي أو (الإيجو) ولكنه أيقن أن فهمه الكامل يستلزم شيئاً من التأرجح فى عالم المجانين وترك العلم جانباً لبعض الوقت.

زعم جروف أن التقدم الذى أحرزه علماء الطبيعة قد أتاح الوسائل لاكتشاف تلك المنطقة التى يتجاوز فيها الوعى مرحلة **الإيجو أو «الأنا الواعى»**. كان اكتشاف تلك المنطقة هو المهمة الأساسية للمؤسسة الجديدة لعلم النفس «الذاتى» والتى أنشأها عالم النفس (إبراهام مازلو) عام ١٩٦٩ مع عدد من المعالجين النفسيين.. وهكذا بدأ تخصص جديد أكثر تأثيراً فى النواحى العلاجية من التحليل النفسى.

عاد رينج إلى منزله وهو فى قمة الحيرة.. وأخذ يحلل كل ما تقع عليه عيناه حول هذا التخصص الجديد الذى استهواه.. وهو لا يدرى أى طريق يسلك لإشباع رغبته فى الدراسة والتعمق فيها. ومرت أربع سنوات حتى استطاع رينج أن يستدل على الطريق الصحيح، كان ذلك فى صيف عام ١٩٧٦، عندما كان يجلس فى حديقة منزله يتصفح بعض الكتب التى أهداها إليه أحد أصدقائه، وكان من بينها كتاب «رايموند مودى» (الحياة بعد الحياة).. ولفت الكتاب نظر رينج فهو يمثل بالنسبة له مجال بحث رائع.. إنه لا يهتم بالموت ولكن حالة الوعى التى يتناولها الكتاب يندر تناولها فى مجال علم النفس.. كما أنها تصلح لاختبار مزاعم ستانيلاس جروف.. أليست رؤى الناجين من الموت تشبه إلى حد ما الذكريات الغامضة لمجربى عقار الهلوسة؟

وبدأ رينج العمل، وخلال ثلاثة أشهر أعد مع بعض طلبة جامعة كونكيتكات الدراسة المطولة التى سبق أن أشرنا إليها فى الكتاب.

لم يمارس كين رينج دراسته بنفس الدقة التى كان يتبعها مايكل سابوم فى التحقق من روايات الناجين من الموت، ولكنه التزم احتياطاً مزدوجاً.. فمن ناحية قام –مثل طبيب القلب فى أطلنطا– ببحث الحالات دون ان يخبرها

بهدف الدراسة معتمداً على بيانات السجلات الطبية، ومن ناحية أخرى كان عدد من الباحثين يشتركون معاً فى التحاور مع الناجين الذين مروا بتجربة الاقتراب من الموت (إن. دى. إى).

خلال ثلاث سنوات من عام ١٩٧٧ وحتى ١٩٧٩ استطاع رينج بعد دراسته لأعمال مودى وسابوم أن يحدد خمسة مراحل مميزة لتجربة (إن. دى. إى) وهى باختصار:

المرحلة الأولى: الخروج من الجسد فى الظلام مع شعور داخلى بالسلام والسكون والسعادة والخفة (وقد اجتازها ٦٠٪ من الناجين الذين تم استجوابهم).

المرحلة الثانية: التواجد خارج الجسد فى حالة من الهلوسة الذاتية..

وهى التجربة الأولى لانفصال الروح عن الجسد والشعور لأول مرة بحرارة «باردة» وذكريات جميلة. داخل غرفة العمليات (٣٧٪ من الناجين).

المرحلة الثالثة: الدخول فى الظلام (بلغها ٢٣٪ من الناجين وتحدث ٩٪ منهم عن نفق ضخم أو ماسورة شديدة الإظلام.. وقد شعر هؤلاء بعد تلك المرحلة بأنهم يحلقون بسرعة كبيرة وأنهم فقدوا رهبتهم من الموت.

المرحلة الرابعة: رؤية النور (١٦٪).. نقطة من لاشىء أو نجمة فى الفضاء تكتسب حرارة ولوناً غرياً وتشع سلاماً يغشى من حولها.

المرحلة الخامسة: الذوبان داخل هذا النور الذهبى (١٠٪) الذى يشع من «بلورة حب».

تسببت بعض العوامل فى عدم مرور جميع الناجين بالمراحل الكاملة للتجربة.. فهناك اثنا عشر شخصاً فقط من بين ١٥٦ فرداً شاهدوا حياتهم تعرض أمامهم كاملة فى لحظات. وأكد عشرون شخصاً أنهم تحدثوا فى رحلتهم إلى شخص ما دون أن يبصروه، ورأى ثمانية من الناجين أحد أقاربهم المتوفين وقد استقبلهم

بحرارة قبل أن ينصحهم بالعودة للحياة الأرضيّة لأن ساعتهم لم تحن بعد، وأكد ستة عشر شخصاً أنهم قرروا العودة بأنفسهم، بينما قال خمسة إنهم اضطروا لإطاعة الأوامر والعودة.

حاول رينج جاهداً أن يحدد مقاييساً ثابتة تحكم ظروف تجربة الاقتراب من الموت.. هل احتمال معايشة هذه التجربة يكون أقوى لدى المؤمنين أو المسنين؟ أو عندما نسمع بها من الغير؟.. وهل طريقة الموت فى حد ذاتها تؤثر على وقوع التجربة؟.. أم أنه المستوى الثقافى أو جنس الإنسان؟! لم يستطع رينج مثل مودى أو سابوم أن يحدد أية معايير ثابتة ولكنه تبين أن احتمال المرور بتجربة (إن. دى. إى) يكون اقوى لدى ضحايا المرض الطويل (بمعدل ٥٦٪) والناجين من حوادث كادت تودى بحياتهم (٤٢٪) ويظهر ذلك بوضوح لدى النساء، أما بالنسبة لسيرة حياة الشخص أو نشأته أو معتقداته الدينية أو المستوى الثقافى والاجتماعى أو عمره.. فإن هذه العوامل جميعاً ليست ذات تأثير فعال على تجربة الاقتراب من الموت.

مقياس واحد هو الذى لفت نظر رينج.. إنهم المنتحرون.. هذه الفئة المنفصلة التى انتبه إليها مودى من قبل التى لا يمر سوى ثلثها فقط بتجربة (إن. دى. إى) دون أن تتعدى المرحلة الأولى. فهم يحكون عادة عن «تحليقهم فى جو جميل مغلف بالضباب» وذكر كثيرون منهم أنهم استمعوا لصوت امرأة.

كان أكثر ما أثار هذا العالم بصفة عامة هو الهدوء والتوازن الذى يتحدث به هؤلاء الذين خاضوا تجربة الاقتراب من الموت عن رحلتهم بطريقة تبدو منطقية وواضحة ومحددة. لقد كانت رحلات كين الخاصة تحت تأثير عقار الهلوسة هى أيضاً واضحة، وقد استطاع بفضلها أن يتفهم مايحدث لأصحاب تجربة (إن. دى. إى) الذين كانوا يكررون دائماً جملاً مثل: «تشع حباً لانهائياً ومعرفة شاملة.. عدت لنفسى عندما بدأت أذوب فى ذلك النور».

وتبين لرينج أنه كلما كانت التجربة عميقة وانفعل بها الفرد، كلما عزف عن الكلام عنها.. فهؤلاء الناجون لا-يتحدثون عن تجربتهم إلا حين يسألون عنها.. ويبكى بعضهم أحياناً حينما يسترجعون مشهد الضوء الباهر.

كان رينج يواصل أبحاثه عندما علم بجهود «جون أوديت» فى هذا المجال وهو عالم اجتماعى ماركسى النزعة يعمل بجامعة «ألينوى».

بدأ جون أوديت فى دراسة ظاهرة **إن.دى.إى** من خلال علم السلالات البشرية محاولاً الوصول إلى معايير اجتماعية محددة ولكنه أخطأ الطريق، فقد اندهش من التنوع الاجتماعى لحالات **إن.دى.إى**، فمنهم الغنى والفقير.. العامل وصاحب العمل.. الجاهل والحاصل على دكتوراه الفلسفة. لذلك قرر إنشاء منظمة متعددة التخصصات لحل هذا اللغز.. فأسس مؤسسة لدراسة تجارب الاقتراب من الموت (**إندس**) والتى التحق بها رينج فور علمه بتكوينها، فكان العضو الأول فيها ورشحه نشاطه لإدارة المؤسسة، وقد نقلت (**إندس**) مقرها بعد ذلك من جامعة الينوى إلى جامعة كونكتيكات.

واتصل رينج وأوديت برايموند مودى الذى وافق على الانضمام للمؤسسة، فقد سعد باهتمام العلماء من مختلف البلاد بدراسة ظاهرة **إن.دى.إى** وخلال شهور نهض الرجال الثلاثة بالمؤسسة وأرسلوا آلاف الخطابات للأطباء النفسيين وعلماء النفس والاجتماع الأمريكيين ليستفسروا عن مدى تعرضهم لظاهرة **إن.دى.إى** واهتمامهم باكتشاف خباياها، وجاءت الردود مبشرة.. فقد رد مئات العلماء بالايجاب على مؤسسة (**إندس**) ومنهم الأطباء وعلماء النفس والفلاسفة الذين تعرضوا لهذه الظاهرة فى النطاق الضيق لأعمالهم.

وكان من بين هؤلاء العلماء روسيل نوى الطبيب النفسى بمدينة ايوا، وسابوم طبيب القلب بولاية تكساس، وطبيب القلب فريد سكونميكر من دنفر بكولورادو، وكارل أوزيس مساعد رئيس جمعية علم النفس فى نيويورك.

وقد تأسست هذه الجمعية فى نهاية القرن الماضى فى لندن ثم نيويورك.. فأثارت ضجة فى الأوساط العلمية حينئذ بتعرضها لمجالات غير مطروقة علميا مثل تناقل الخواطر عن بعد.. والقدرة على تحريك الأشياء بغير الاقتراب منها.. وبعد النظر.. إلخ. فى البداية كانت أبحاث تلك الجمعية موضع سخرية، ولذا استغرقت عشرات السنوات حتى أثبتت شرعية وجودها رسمياً بين الجمعيات العلمية من خلال العمل التجريبى، والوصول لحقائق واضحة بغير الانزلاق إلى موضوعات غير منطقية.

وكان الدكتور كارل أوزيس رئيس الجمعية هو الذى أشار على رينج بضرورة نشر أبحاثه الجديدة فى مجتمعات وقارات أخرى. كان أوزيس يؤمن بأن العلم لا يقف عند حدود معينة. لذلك سافر مع زميله عالم النفس الأيرلندى جوستاف هارلدسون إلى الهند ليكتشفا مدى اختلاف رؤى الناجين من الموت فى ذلك المجتمع المختلف عن أمريكا. وكانت النتيجة التي خرج بها العالمان ونشرت عام ١٩٨١ فى بحث بعنوان «ساعة وفاتنا» تؤكد أن الناجين من الموت يمرون بنفس مراحل التجربة بصرف النظر عن بيئتهم الثقافية والاجتماعية.

لم يكن عمل أوزيس وهارلدسون دقيقاً كما ينبغى لأنهما اعتمدا على روايات الأطباء والممرضات في نقل رؤى أصحاب التجربة إليهما.. فهما لايعرفان اللغة الهندية أو الأردية أو أى لكنة تساعدهما على فهم المرضى وسؤالهم، ولكن دراستهما كانت إحدى المعالم التى أوضحت الطريق أمام علماء مؤسسة (إندس).

اقتنع رينج وأوديت برأى أوزيس فى ضرورة نشر أبحاثهما فى العالم، فأضافا كلمة العالمية لاسم المؤسسة فأصبح اختصارها «إياندس». ولكن رحلات أوديت لأوروبا لم تسفر سوى عن نتائج هزيلة.. فلم ينضم إلى المؤسسة سوى باحث من ألمانيا وباحثة من فنلندا.. والسبب أن ذلك التيار الذى يطلق عليه الأمريكيون «تيار الموت والاحتضار» لم يثر فضول الجامعيين وحماسهم بقدر ما لاقى من

اهتمام معين من جانب المعالجين الرحماء بأصحاب هذه التجارب. لهذا لم يكن عالم النفس رايموند مودى هو الذى فتح الطريق أمام هذا المجال من البحث العلمى، وإنما إليزابيث كوبلر - روس التى كانت تولى المحتضرين عناية خاصة.

كانت أوروبا تريد أن يكون لديها روادها فى هذا المجال قبل أن تنافسها فى ذلك مؤسسة (إياندس) الأمريكية. ولكن هذا التيار لم يظهر بوضوح فى فرنسا مثلاً إلا فى عام ١٩٨٣.

حاول رينج تحليل نتائج دراسته حول الحالة النفسية للمحتضرين وكان اللغز الأول أمامه هو كيف يتخيل أن وعى الإنسان يمكن أن ينفصل عن جسده؟! وعلى النقيض من مايكل سابوم الذى ركز دراسته حول المرحلة الأولى من تجربة إن.دى.إى. والتى أسماها الهلوسة الذاتية.. فإن رينج اتجه مباشرة للمرحلة الخامسة بحثاً عن مفتاح اللغز فى روايات الناجين القادمين من رحلات عميقة فى عالم الموتى.

كان اللقاء الأول مع «جوجيراتشى» ضابط الشرطة الكبير فى هارتفورد والذى هيمن عليه الحب بعد إصابته بأزمة قلبية، لقد استغرق جو خمس سنوات كاملة حتى استطاع العودة من تجربته كلية إلى الحياة الأرضية.

كانت سلوكيات الأفراد وخاصة إذ كانت متعلقة بالحب تبدو له حقيرة.. واليوم يمضى «جو» أحياناً ساعات طويلة فى تأمل نزول المطر بهدوء وسعادة غريبة.. لقد أصبح «جو» الشرطى الأكثر روحانية فى كونكتيكات.

أما هيلين نيلسون فقضت ٤٨ ساعة فى غيبوبة وحدها فى منزلها قبل أن يحضر إليها أكبر أبنائها، لقد عرفت هيلين أيضاً المرحلة الخامسة واتسع أفقها، ولكن زوجها لم يستطع التأقلم مع التغيير الذى طرأ على زوجته فانفصلا بالطلاق ولكنهما ظلا صديقين.

وكان توم سويار من بين الحالات التى تمت دراستها.. إنه شاب فى الثلاثين من عمره.. أب لطفلين.. يعمل ميكانيكيا فى ورشة مجاورة لمنزله بمدينة روشستر بولاية نيويورك. فى عصر أحد الأيام وبينما كان يقوم بإصلاح موتور شاحنة، كُسرت الآلة الرافعة فسقطت الشاحنة التى تزن ثلاثة أطنان فوقه.

وصدرت عن توم حشرجة فظيعة سمعها ابنه الصغير فسارع يطلب النجدة من الجيران.. ومرت عشر دقائق عصيبة على توم، فهو لم يغش عليه ولكن هذه الأطنان الثلاثة سحقت صدره وبطنه وشعر بأن روحه مقسمة بين ستار أحمر وستار أسود.. كما شعر بألم شديد واختناق. وأخيراً حضر رجال الإطفاء وفى اللحظة التى تم فيها رفع أطنان الصلب الثلاثة من فوق صدر توم أغمى عليه وبدا وكأنه يحتضر.

فى سيارة الإسعاف توقف توم عن التنفس، ثم توقف نبض قلبه وقيل «لقد انتهى». ولكن من يعلم؟!. لقد حاولوا إنعاش قلبه الذى لم يدق سوى مرة واحدة فى طرقات المستشفى بعد عشرين دقيقة كانت هى الحاسمة فى حياته.

ويقص توم بعد مرور ست سنوات على الحادثة حكايته مع الموت بانفعال شديد وكأنها حدثت بالأمس فقط فيقول. إنه فى اللحظة التى رفعه فيها رجال الإطفاء من تحت الشاحنة شعر فجأة بتحسن وهدوء لم يذق طعمهما من قبل، وشعر أيضاً بخفة مطلقة وكأنه أخف من الهواء.. ثم شعر بأنه يطفو فوق بساط سحرى فى حالة غبطة كاملة، وفجأة رأى توم نفسه ملقى على الأرض فى ورشته محاطاً برجال الإطفاء والدم يسيل من فمه ويختلط بالشحم.

لقد رأى الواقعة كاملة بكل تفاصيلها.. سيارة الإسعاف الحمراء وهى ترجع للخلف فى الممر والنقالة التى تم إخراجها فى عجلة لوضعه عليها، وطفليه واقفين فى ذهول والجيران يحاولون الإمساك بهما وتهدئتهما.

كل هذا مثل الكاميرا الخفية، ولكن من أين شاهد توم الواقعة؟! فى البداية، كان يرى كل هذا من نقطة على ارتفاع ثلاثة أمتار فوق الأرض ثم أربعة أمتار

ثم خمسة ثم عشرة ثم مائة.. ثم رأى أيضاً – ولكن عن قرب– جسده الخامل محمولاً على الطريق السريع ذى الاتجاهين.

وفجأة توقف شريط الصور.. وشعر توم بأنه ينجذب داخل هاوية حالكة الظلام ولكنه استمر فى الإحساس بهدوء وتحسن لانهائى.. شىء ما جذبه بقوة فشعر أنه لايزال يسبح فى الهواء بسرعة جنونية وقال لنفسه: «بهذه السرعة سأصل إلى النجوم».. ثم تساءل إن كان حياً ولكنه استنتج: «لا.. يجب أن أكون ميتاً»!

وهنا ظهرت طاقة النور.. فى البداية على شكل نجم، أو نقطة فى الأفق، ثم على هيئة شمس ضخمة لم يضايقه نورها الخارق الأخاذ بل على النقيض كان النظر إليها متعة.. ثم اقترب توم من هذا النور الأبيض وشعر بأنه يتعرف على الطبيعة من جديد.

كانت هذه الرؤية مثل ذكرى قديمة جداً كامنة فى أعماق ذاكرته تصحو لتحيط تدريجياً بكل وعيه وإدراكه.. كانت ذكرى لذيذة وممتعة كأنها ذكرى حب!

ولكن هل هذا معقول؟.. هل هذا النور الغريب مكون فقط من الحب؟!. إن هذه المادة – الحب الحقيقى – هى كل ما أبصره من العالم. لا.. لم يكن سكيراً بل كان انطباعه أنه لم يشعر أبداً بهذا الانتباه والتركيز فى حياته.. ولكن أين هى حياته؟ أليس ميتاً؟!

واقترب توم من النور حتى نفذ فيه أخيراً، وعندئذ أحس بنشوة لا يمكن وصفها لأن انتباهه وعاطفته قد تضاعفتا وتركزتا ملايين المرات. وبينما ظهرت أمامه مناظر طبيعية خلابة لانهاية لها تولد لديه الانطباع بأنه هو هذه الغابات.. وأنه هو هذا الهواء وهذه البحيرة الفضية والأسماك التى تجول فيها.. ثم استعرض شريط حياته كاملاً. إنها ظاهرة غريبة ومبهمة.. إنه يتذكر كل شىء ولم ينس فى نفس الوقت أية تفاصيل.

لم يستطع توم وهو يقص رحلته مع تجربة الاقتراب من الموت أن يكبح دموعه المتدفقة وقال: «إن الشيء الأساسى لا أستطيع التعبير عنه بالألفاظ لأنه شيء لا نشعر به فى الحياة العادية.. إننى أحب زوجتى وأعبد أطفالى ولكن هذا الحب بكل قوته لا يمثل سوى جزء صغير جداً من الحب الذى شعرت به فى مواجهة طاقة النور.. إنه حب شامل ولانهائى».

لقد تغير توم بعد الحادثة ولم يعد كذى قبل، وهناك شيء غريب فى هذا التغير.. فقد بدأ يشغف بالعلوم الفيزيائية وبالأخص الميكانيكا، ويقول توم إن هذا الاهتمام العلمى قد جاءه فى أحلامه وقد أخذ الميكانيكى البسيط يتذكر علماء مثل «ماكس بلانك» و«نيل بوهر».. علماء لم يكن يعرف شيئاً عن مجرد وجودهم من قبل. ولكنه يجد ذلك طبيعياً لأن توم يدعى أنه فى وجود «النور» كان يعرف كل شيء لأنه بطريقة ما كان هو كل شيء.. بل إنه أصر على عدم فقدان وعيه خلال تلك التجربة.

بعد عدة روايات من ذلك النوع.. أصر «كين رينج» على تكريس جهوده فى البحث حول المرحلة الخامسة، وكان لابد له من تأليف كتاب شامل حول ظاهرة **إن.دى.إى** وهو كتاب «الحياة لحظة الموت» قبل أن يركز جهوده حول تلك المرحلة الحرجة التى يذوب فيها الوعى داخل ذلك النور الباهر.

وصف معظم الناجين هذا النور الذى شاهدوه واخترقوه وذابوا داخله (وهم خمسة عشر شخصاً بين حالات رينج) بثلاث كلمات هى «فائق الوصف والحب والمعرفة» وقد حيرت الكلمة الأخيرة رينج.. ما هى تلك المعرفة؟ إن توم سويار قد عاد من تجربته بمعلومات عن الفيزياء وهو لم ينه دراسته الثانوية وقال إنه لم يسمع من قبل عن الفيزياء فى عهد ماقبل أو بعد إينشتين.

ولكن الأمور سرت بصورة عادية بالنسبة لتوم.. فبعد الحادث وأثناء فترة النقاهة كانت كلمة واحدة تتردد فى ذهنه: «كوانتا» وبدأ يشعر بتعطش شديد لمعرفة الواقع المادى لهذا العالم.. فذهب لمكتبة جامعية بحثاً عن معنى هذه الكلمة..

وهناك قال له أحدهم إنها تعنى شيئاً فى علم الفيزياء وأرشده إلى قسم الكتب المتخصصة فى هذا المجال، وحاول توم قراءة أحد الكتب ولكنه لم يفهم شيئاً. فأصر على استكمال تعليمه والتحق بمعهد الإلكترونيات، وبعد ست سنوات استعد لاجتياز امتحان معادلة البكالوريوس فى الفيزياء.

ولم يَضعُف اقتناعه وحماسه أبداً. فكان فى الجامعة يدعى أن الأمر لايزيد عن إعادة اكتشافه تدريجياً للمعرفة التى وصل إليها عند نفاذه داخل هذا النور.

وتساءل رينج: «ما هذا المزاح؟» إن رواية توم تشبه ذكريات مرضى جروف تحت تأثير عقار الهلوسة.. ذكرياتهم بأنهم كانوا فى صورة نبات أو خلية نباتية.. إلخ.

لقد حكى جميع الناجين الذين مروا بالمرحلة الخامسة نفس الشىء: «فى اللحظة التى أوشكت فيها على ترك هذا النور.. نادانى هاتف قائلا: إنك ستنسى كل شىء وأجبت: لا.. لماذا؟ بل إننى سأقص كل شىء على أصدقائى، ولكن الهاتف أصر: «لا» إنك لن تستطيع.. فسوف تنسى. وبالفعل نسيت الشىء الأساسى. إن النشوة السعيدة التى شعرت بها تلازمنى ولكننى نسيت سببها الحقيقى».

إن مصدر النسيان الذى يتحدث عنه الناجون هو نفسه ما أشار إليه اليونانيون فى أساطيرهم عن زيارة بلاد الموتى والاستمتاع بها قبل العودة إلى الحياة الأرضية. وقد عثر فى اليونان فى بداية هذا القرن على حجر فى أحد القبور نقشت عليه هذه السطور:

(ستجد بالقرب من سكن الموتى.. على اليسار.. نبعاً وبجانبه شجرة سرو. لاتقترب من هذا النبع.. ستجد نبعاً آخر يخرج من بحيرة «الذاكرة».. ماؤه بارد ويقف عليه حراس قل لهم: إننى ابن الأرض والسماء الساطعة ولكن «أصلى» فى السماء وأنتم تعلمون ذلك.. إن العطش يستبد بى وسيقتلنى.

اعطونى بسرعة الماء البارد من بحيرة الذاكرة وسيسمحون لك بالشراب من ذلك النبع السماوى وعندئذ ستتفوق على جميع الأبطال).

«بحيرة الذاكرة»؟ اسم غريب استهوى كينيث رينج ودفعه للبحث فى الحضارة المصرية واليونانية ولكنه لم يجد ما يتطابق علمياً مع دراسته.. ما هى الذاكرة وكيف نتذكر؟

كانت إجابة هذا السؤال دائما غامضة حتى أيام دراسته بالجامعة وتذكر رينج تأكيدات جروف بأن اكتشافات علماء الفيزياء فى القرن العشرين ساهمت فى وضع أساس متين لعلم النفس «الذاتى».

ووجد رينج - العالم الأمريكى الشاب - نفسه يغرق فى دراسة الفلسفة دون أن يدرى بعد تعمقه فى دراسة علم الأعصاب وعلم النفس والفيزياء محاولا إيجاد إجابة لتساؤلاته الحائرة.

أسطورة الموت

قطعت هذا الشوط الطويل فى الكتاب قبل أن أعى وأفهم بعض الأمور الدقيقة والهامة.. فقد كنت أجهل مثلاً أن الوصول إلى قمة السعادة ولابد وأن يسبقه المرور بالأحزان و«وادى الدموع» حتى يسقط الإنسان على الأرض منهك القوى.

وفى هذه اللحظة.. أشعر بمنتهى السعادة بعد المجهود الكبير الذى بذلته، فلقائى بالعديد من العلماء على مدى الشهور السابقة قد أثار أمامى الطريق ومنحنى الإجابة على أسئلة عديدة كان يلاحقنى بها «شيطان الفكر» فيحبط بها عزيمتى موحياً إلى بعدم القدرة على إتمام هذا العمل الذى بدأته.

ضحك شيطانى قائلاً: «إنك تتأرجح يا صديقى المسكين لأنك قد اندمجت فى دراسة هذه الظاهرة بأحاسيسك وكان لابد أن تتناولها بالحياد التام.. وقديما قال الحكماء: إن العواطف محدودة النظر لا ترى إلا جانباً واحداً من الأشياء».

وأجبت بروح مرحة:

– «إن هذا بالضبط ما يحكيه أصحاب تجربة الاقتراب من الموت، فهم يشعرون بالهدوء التام والسلبية المطلقة أمام المشهد الحزين الذى يدور حول «جثثهم».. ومن هذا المنطلق يتغيرون جذرياً.. حتى دموع المقربين لا تهز مشاعرهم».

وأضفت: «بل إن إحساساً بالرحمة الشاملة يسيطر عليهم أثناء تلك السلبية الغريبة.. فهؤلاء الذين استعادوا أجزاء من حياتهم من أعماق الذاكرة عاشوا أدق التفاصيل من جديد ولكن بصورة رحيمة حانية وهم يستشعرون الآن

أثر تلك التجربة عليهم وعلى الآخرين. إننى فى بعض الأحيان أحاول تخيل ما شعر به هتلر أو ستالين عندما واجهوا الموت...».

فى هذه المرحلة يبدو أن الذاتية المطلقة تتحول إلى الموضوعية وعدم التحيز الشخصى. وكأن قمة الانفعال وقمة السلبية ليسا إلا وجهين لعمله واحدة.

ويلح علىَّ شيطانى فى انفعال وقلق :

– هل تعنى.. أن العواطف تعمينا عن رؤية الحقائق

– إن العواطف والانفعالات المحدودة تحد بالفعل من رؤيتنا الصحيحة للأمور ولكن المشاعر والأحاسيس العظيمة تنير لنا الطريق، لذلك لابد أن نتجنب الأولى ونتمسك بالثانية، فالأولى قد ينطبق عليها لفظ أهواء، أما الثانية فتقع فى اطار الرحمة والحنان. وسخر منى شيطانى قائلاً.. «إنك تتلفظ بحماقات يا صديقى العجوز المسكين!». وكان محقاً فى قوله.. إننى مشوش الفكر وأتساءل كثيرًا عن حالة النشوة الغريبة التى انتابتنى منذ لقائى بالعلماء لبحث هذه الظاهرة, حتى إننى أعتقد فىْ بعض الأحيان أن محادثاتى مع هؤلاء العلماء لم تتم إلا فى أحلامى. لقد كانوا يحللون كل صغيرة وكبيرة ويضعون تفسيراً ومعنى لها. ولكن الأمر بالنسبة لى ظل محيراً.

إنها مفارقة غريبة فى حياتنا.. فنحن نتجاهل الموت ونحاول نسيانه رغم أنه مصدر الإلهام الذى اقتبست منه جميع الحضارات الكبرى تاريخها وطقوسها وأفكارها، فقد كان المحتضرون فى جميع الحضارات هم الملهمون الذين يحكون من خلال معتقداتهم ومشاهداتهم عند الاقتراب من الموت قصصاً عن الحياة الأخرى لتصبح بعد ذلك أسطورة يتناقلها الأحياء. وحول هذه الأسطورة كانت تدور الطقوس التى تمثل فناً فريداً ورؤية مميزة للعالم، كان الموت أو ذلك «النبع الأسود» هو مصدر الإلهام لجميع الحضارات عدا الحضارة الغربية لأن إنسان العصر الحديث أدار ظهره للموت وحاول نسيانه.

ولكن ألم نخسر نحن المعاصرون -بتجاهلنا لهذا المصدر المُلهم- الكثير من صفاتنا الآدمية.. وأصبحنا أشبه بإنسان الغاب الذى كان يشبه القردة إلى حد كبير. هل يكون نسيان الموت هو السبب فى إصابتنا بالفراغ الداخلى؟ .

يا للدهشة! فى الوقت الذى أدركت فيه أن العلم المعاصر سيساهم فى ميلاد أسطورة قوية عن الموت.. تبين لى أن الموضوع ليس علمياً ولكنه يخضع لعلم الأساطير.. ولكنها هذه المرة أسطورة حية تغير كل شىء فى حياة الإنسان عند التعرض لها.. أسطورة مختلفة عن الأساطير التى انقرضت أو فى طريقها للانقراض مثل أسطورة السجائر.. والهروبين.. ونجمات السينما.. ورقصة «الروك أند رول».

إن تجربة الاقتراب من الموت (إن. دى. آى) توحى بميلاد أسطورة جديدة حية فى عالمنا المعاصر.

والآن بعد ما وصلت إلى هذا التفسير اكتشفت سر السعادة والنشوة التى تغمرنى منذ لقائى بالعلماء.. والسبب هو شعورى بالانتماء لحضارة حقيقية يحتل فيها النبع الأسود مكاناً بارزاً، فقد قلب هذا الانتماء حياتى رأساً على عقب.

إن هؤلاء العلماء أشبه بمؤلفى قصص الخيال العلمى.. فهم يضعون سيناريوهات أوتصورات لما يحدث داخل العقل البشرى فى غفلة من الوعى الكامل أثناء تجربة (إن. دى. آى). فيفترض كينيث رينج مثلاً أن الواقع الذى نستشعره من خلال حواسنا الطبيعية يعد تجسيدا «لحقيقة بدائية» هى الوعى، وبالتالى فإن عملية الخروج من الجسد فى تجارب الاقتراب من الموت لا تتم جسمانياً وإنما من خلال هروب الوعى من عامل الحيز الوقتى أو انفصاله عن الزمان والمكان.

يقول رينج: «عندما نموت نتحول إلى موجات انفعالية، وتعود إلينا جميع ذكرياتنا بحلوها ومرها.. وهنا لا يرى الشخص شيئاً وينعزل عن الواقع الظاهرى

للعالم المحيط به لأنه يجب أن يقترن بالحقيقة البدائية وذلك من خلال حدوث تغير فى مستوى الوعى.

فى هذا العالم يجد الشخص نفسه فى ظلام هائل.. وفجأة يرى أمامه موكباً من الأقرباء والأصدقاء المتوفين، ثم تظهر نجمة تسوقه إليها ريح عاتية.. وتكبر النجمة لتصبح شمساً.. إنها النور الباهر الذى يتحدث عنه الجميع.. ياإلهى! لقد بلغت المرحلة الخامسة، أنت الآن تعيش واقعاً جديداً من العواطف النقية الطاهرة، وقد تخلصت من وزنك المادى وابتهجت نفسك.. تسمع صوتاً قوياً يناديك ويشملك بحرارة فائقة الوصف، ولكنها حانية رحيمة ومثيرة فى نفس الوقت، إنك فى الجنة وسط بحيرات من الماء وملايين من الزهور ذات ألوان عجيبة.. تتساءل أين أنا؟.. إنك بين أمرين.. إما أنك موجود فى العالم الظاهرى حيث ترى الحقول والزهور والنساء وجموع الأطفال أو أنك وصلت إلى الحقيقة البدائية حيث يتلاشى الزمان والمكان وجميع الرؤى، ولكن كيف نفسر تلك القطعان الجميلة من الخيول المجنحة التى تجرى فى المراعى.. قف هناك ثغرة فى السيناريو!»

ويفسر رينج وجود هذه الثغرة بأن وعى الفرد يكون قليل المهارة والاستيعاب عندما يلتقى بعالم العواطف النقية التى افتقدها زمناً طويلاً، فالوعى يقوم بتحويل الذبذبات التى يلتقى بها إلى صور أرضية مفهومة مثل الخيول والزهور والنساء ولكنه يراها بشكل خيالى ومتضخم. إن كل ما يشعر به الفرد يظهر أمامه بوضوح ولكن حذار أن يملأك الرعب وإلا ستراءى لك صور مخيفة.

ويكمل رينج السيناريو الذى بدأه فيقول: «إنك تترجم كل شىء إلى صور لتخلد عالمك بالزمان والمكان والوعى الخاص بك حتى تصل إلى لحظة تدرك فيها أن هذه العجائب التى تبهرك، أو هذه الوحوش التى تخيفك وهذه البحيرات والزهور والألوان التى لم ترها من قبل وهذا النور الدافىء الفائق الوصف الذى يتكلم عنه أصحاب التجربة وهذه الضجة المرعبة.. كل هذا هو أنت! لقد

تحولت إلى عالم بأكمله أكبر منك.. خارج عن حدودك.. لقد أصبحت كل شيء.. كل الناس.. وملايين من الناس من حولك يصرخون: أنا هذا الشخص وحدى فى قاربى الصغير الأسطورى الذى يبحر بى إلى نهايتى الفريدة المطلقة».

ويقول رينج فى النهاية إن أحداً لا يستطيع الاحتماء ضد نفسه. إنها بداية أسطورة جديدة.. أو لغز عالمى كبير.

فى طريق العودة إلى فرنسا بعد سلسلة أبحاثى مع العلماء الأمريكيين أخذت أتصفح فى الطائرة مرة أخرى كتاب «أهل التبت عن الموتى» واكتشفت أن الأجزاء الغامضة من هذا الكتاب بدأت تتضح أمامى. إن أهل التبت يعرفون تماماً هذا السيناريو الذى وصفه رينج ولكن منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام ودون معرفة بتكنولوجيا الإنعاش أو العناية المركزة أو أى علوم حديثة من تلك التى ساعدت رينج على وضع هذا السيناريو، فقد كان بعض كبار الكهان من أهل التبت يقصون على تلاميذهم الرؤى التى يشاهدونها حتى مرحلة متقدمة من الاحتضار.. فجاءت مطابقة لكلام رينج ولكن بصورة مختلفة تقول إحدى فقرات الكتاب:

«آه يا ولدى النبيل.. فى اللحظة التى تنفصل فيها روحك عن جسدك سترى ضوء الحقيقة النقية المضيئة المشعة المبهرة العظيمة الشديدة التأثير، وكأنها سراب يمر فوق طبيعة جميلة فى الربيع على هيئة طوفان من الذبذبات.. فلا تخضع أوتخف أوتخشَ شيئاً.. إنه شعاع طبيعتك الحقيقية ويجب أن تعرفها».

إن المشكلة تكمن فى المخاوف التى تسببها لك «طبيعتك الحقيقية» لأنها متضخمة فى كل شيء فهى جميلة جداً.. كبيرة جداً.. هادئة جداً وطيبة جداً، لذلك ينصح الحكماء بتجنب مشاعر الخوف والأمل معاً.. ليس بمحاولة طرد صور رغباتك ومخاوفك بالقوة، ولكن بالتصدى لها ومحاولة فهمها حتى يمكن تخطيها.

فالحكماء ينصحون بأن يحاول كل منا التخلص من ارتباطاته الدنيوية قبل الموت سواء كانت ارتباطات عقائدية أو حسية أو ثقافية أو علمية لأن ارتباط الشخص المتعصب بمعتقداته أوالمثقف بأفكاره تشبه ارتباط المدمن بالخمر.. إنه نوع من الإدمان يصعب التخلص منه.

ذات يوم أدركت أننى قد اقتنعت تماماً بتصور رينج لحالة الاحتضار.. ربما كان تعبيره فى البداية ساذجاً ولكنه سرعان ما تبلور ليصبح أكثر دقة وشمولاً، لقد اكتشف رينج أن المتصوفين من أهل التأمل يعرفون تماماً منذ فجر التاريخ حالة الوعى التى يمر بها أصحاب التجربة عند اقترابهم من حافة الموت.

وقد أدهشنى أن يستمر رينج فى أبحاثه بعد هذا الاكتشاف.. فأنا مثلاً لم أكن لأجرؤ على نشر شىء حول هذا الموضوع لوكنت مكانه، لأن قوة هذه الرؤى كفيلة بأن تقلب كيانى رأساً على عقب. ولكن الاستمرارية فى تناول هذا الموضوع بالبحث والدراسة أكدت ميلاد أسطورة جديدة عملاقة.